ثقافات الشعوب





قوس قزح وأوراق الخريف

حكايات شعبية من كندا

جمع: سيروس ماكميلان
ترجمة: خالد الجبيلي

قوس قزح وأوراق الخريف
حكايات شعبية من كندا

جمع:
سيروس ماكميلان

ترجمة:
خالد الجبيلي





قوس قزح وأوراق الخريف

حكايات شعبية من كندا

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

قوس قزح وأوراق الخريف: حكايات شعبية من كندا

الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

GR 113. M2512 2009
Macmillan, Cyrus, 1880-
[Canadian Fairy Tales]

قوس قزح وأوراق الخريف: حكايات شعبية من كندا/ جمع سيروس ماكميلان؛ ترجمة خالد الجبيلي
- ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
240ص: 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 2- 978-9948-01-353
ترجمة كتاب: Canadian Fairy Tales
1 - القصص الشعبية الكندية. 2 - الحكايات الكندية. أ- جبيلي، خالد.
ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبوهواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التتان

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+



ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

قوس قزح وأوراق الخريف

حكايات شعبية من كندا

جمع:
سيروس ماكميلان

ترجمة:
خالد الجبيلي





المحتويات

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها - مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة - تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في أقاصي الغرب، أو

شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه - وإن بلغة أخرى - جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

تقديم

وضع البروفسور ماكميلان جميع محبي الحكايات الشعبية تحت دين عميق من الالتزام تجاهه.

فالحكايات الشعبية تروق للجميع، صغاراً وكباراً؛ للصغار لأنها تشكل العالم الطبيعي الذي يتسع فيه خيالهم إلى أكبر مدى ممكن، وللكبار لأنهم يدركون مرة أخرى روح الشباب وهم يقرأون هذه الحكايات لأطفالهم وأحفادهم مراراً وتكراراً، ويستمتعون بالخيال الذي يعيشونه، وهو أنه لم يعد ثمة فارق كبير في العمر يفصل بين الأجيال.

إن ما يجعل هذه الحكايات الشعبية جذابة وآسرة للجميع من مختلف الأعمار، تناولها للعناصر الأساسية في الطبيعة التي هي ذاتها في جميع العصور، ولدى جميع الشعوب والأجناس. ففي الحكايات الشعبية من كندا، التي جمعها البروفسور ماكميلان على نحو مثير للإعجاب من مصادر هندية، نجد أنواع الشخصيات ومشاهد المغامرات نفسها التي نراها في الحكايات

الشعبية التي تجري أحداثها في غابات ألمانيا وكندا وإنجلترا وفرنسا.

ويشعر كل فرد منا بإعجاب فطري بروح المغامرة التي نجدها في الحكايات الشعبية التي تتحدّى القوى القاسية والمدمّرة، والمساعدة التي تقدمها الجنّيات للدفاع عن قضية ما، وتدخل في صراع مع الأشرار والدنيئين، سواء كانوا على حقّ أم على باطل.

ويمكن تتبع أصل الحكايات الشعبية دائماً إلى بدايات الحضارة، وإنه لمما يثلج الصدر التأكيد بين الحين والآخر أن الإنسان يمتلك بعض الدوافع الطبيعية التي تنبع من إحساس متأصّل بالشرف، والرغبة في تقويم أخطاء العالم وإصلاحها.

وقد نجح البروفسور ماكميلان في تقديم فلكلور الهنود الحمر بطريقة جميلة وجذّابة للغاية. إذ تمتلئ جميع القصص بسحر الغابات الكندية وغموضها. فهي تغوص في أعماق الطبيعة، كما أنها تغوص في أعماق قلب الإنسان.

جون جرير هيبين[1]

---

(1) جون جرير هيبين (1861-1933): قس وفيلسوف ومعلم امريكي، تولى رئاسة جامعة برينستون بعد وودرو ويلسون بين 1912-1932(م).

توطئة

شأن الحكايات الواردة في كتاب «حكايات الأعاجيب الكندية»، جمعت الحكايات التي تضمها هذه المجموعة من بقاع مختلفة من كندا، سواء كانت بالقرب من الأنهار أو البحيرات، أو على شاطئ المحيط حيث لا يزال البحّارة وصيّادو الأسماك يراقبون النجوم؛ وفي مناطق الغابات حيث لا يزال الحطّابون يحتفظون بشيء من بقايا حياة التنقل والترحال القديمة التي لا تزال موجودة، وحيث لا يزال الهنود يقايضون الفراء المتوافر لديهم بالسلع، وفي الأماكن البعيدة حيث لا تزال النساء يتحدثن بوقار عن زمن آبائهن وهن يغزلن. وقد تُرك قوام هذه الحكايات في معظمه كما هو من دون أي تغيير، لكن من الطبيعي أن تختلف اللغة قليلاً عن لغة الحكاية الأصلية التي نقلها الكاتب من شفاه الرواة.

وفي كثير من الأحيان، لا يتذكر الجميع أنه قبل فترة زمن آرثر ومائدته المستديرة بفترة طويلة، كانت هذه الحكايات معروفة، ولا يزال السكّان الأوائل في أرضنا يحافظون عليها. لكن مهما كان التغيير الذي طرأ عليها نتيجة انتقالها شفوياً من جيل إلى جيل، فإن جوهرها يعود إلى الأيام الأولى لما قبل فجر التاريخ الكندي.

إن كندا غنية بهذه الحكايات وبالحكايات الشعبية القديمة. ومن الضروري بذل كل جهد ممكن لإنقاذها كي لا تضيع وتصبح في طي النسيان. إذ يشغل أدب الحكايات الشعبية مكانة هامة في تنمية عقل الطفل، ولا توجد حكايات شعبية أفضل من الحكايات المتوافرة في بلدنا. ومن خلال عيون الراوي الهندي والحالم الهندي اللذين يرثان حكاياتهما من ماض رومانسي، لا يزال بوسعنا أن ننظر عبر «نافذة سحرية تُفتح على زبد بحار محفوفة بالمخاطر في بلاد الجنيات المهجورة». ولا يزال بإمكاننا أن نشعر بمسحة من عبق ذلك الماضي الغامض الذي كان أسلافنا يعيشون فيه. إنّ الأمل الوحيد الذي يحدو المؤلف بحق إلى نشر هذا الكتاب، هو ألا تضيع على أطفالنا في وقتنا الحاضر تقاليد ماضينا الكندي الرومانسي في خضم حاضرنا الكندي العملي.

سيروس ماكميلان

كيف خلق «غلوسكاب» الطيور

في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، وقبل أن يأتي الرجل الأبيض إلى كندا، كان يعيش عملاق شرّير يسبب مشكلات كثيرة، ويخلّف وراءه حزناً شديداً حيثما ذهب. وقد اسماه الرجال ذئب الريح، ولم يكن أحد يعرف أين ولد. وكان بيته يقبع في «كهف الريح»، في مناطق بعيدة في شمال البلاد في أرض الليل- الليل، وكان الناس يعرفون أنه يختبئ في الأيام الهادئة، عندما تشتد حرارة الشمس، ويصبح البحر ساكناً، وفي الليالي الهادئة التي لا تتحرك فيها ورقة شجر أو زهرة أو نصلة عشب. لكنه ما إن يظهر، حتى تتصدّع الأشجار الضخمة خوفاً، وترتعش الأشجار الصغيرة، وتحني الأزهار رؤوسها حتى تدنو من الأرض، محاولة الاختباء منه. وفي غالب الأحيان، كان يباغتها من دون سابق إنذار، ولا تظهر دلائل كثيرة تشير إلى قدومه، فتتساقط الذرة ولا تعود تنهض ثانية، وتتحطم الأشجار الباسقة في الغابة، وتسقط الأزهار ميتة من شدة الخوف. وفي معظم الأحيان، يتحول لون

المياه العظيمة لتصبح بيضاء وتصدر أنيناً أو صراخاً عالياً، أو ترمي نفسها فوق الصخور محاولة الهرب من ذئب الريح. وفي ظلام الليل، عندما يعوي ذئب الريح ويجأر، يهيمن خوف شديد على الأرض كلها.

وفي أحد الأيام في تلك الأزمنة القديمة، تصادف أن استشاط ذئب الريح غضباً، ومضى في طريقه ليقتل كل من تجرأ على الوقوف في طريقه ويلتهمه. في ذلك الوقت، تصادف أن عاشت عائلات هندية كثيرة بالقرب من البحر. وكان الرجال والنساء يصطادون بعيداً عن الشاطئ ليعدّوا طعامهم لفصل الشتاء. في ذلك الحين، ابتعدوا كثيراً في زوارقهم الصغيرة لأن البحر كان ساكناً وهادئاً منذ أمد بعيد، وخيّل لهم أنه لم يعد ثمة خطر يواجههم، وبقي الصغار وحدهم على الشاطئ. وعندما مالت الشمس نحو الغروب، ودون أي إشارة تدل على قدومه، جاء ذئب الريح بغتة من الشمال وهو يتميّز غضباً بحثاً عن فريسة، ويجأر عالياً ويقول: «أنا ذئب الريح العملاق لا يعترض طريقي أحد، لأني سأقتل كل من أراه في طريقي، وسألتهمهم جميعهم». واشتد غضبه وهو يسير ببطء، وينثر الماء على كلا الجانبين، واقترب من صيّادي السمك الذين كانوا قد ابتعدوا كثيراً عن الشاطئ.

لم يتسن للصيادين وقت للهرب من قبضته قبل أن يصل إليهم، أو يسرعوا بقواربهم إلى الشاطئ، فقد باغتهم ذئب الريح بسرعة كبيرة، وسدّ عليهم طريقهم وحطّم مراكبهم وقتلهم عن بكرة أبيهم. وظل الغضب يتملكه طوال الليل في المحيط وهو يبحث عن صيادين آخرين.

وجاء الصباح، ولم يكن غضب ذئب الريح قد هدأ بعد.

ورأى على مسافة بعيدة أطفال الصيّادين الصغار وهم يلعبون على الشاطئ. وكان يعرف أنّهم وحدهم لأنه قتل جميع آبائهم وأمهاتهم. فعزم على أن يمسك بهم ويقتلهم أيضاً، وهكذا مضى وراءهم، والغضب الشديد يتملكه. وبسرعة كبيرة، توجه نحو الشاطئ، يجأر بقوة وهو يشق طريقه دافعاً بالماء إلى الصخور في سورة غضبه وجنونه. وعندما اقترب من الشاطئ راح يجأر غاضباً ويقول: «سأمسك بكم جميعكم، سأقتلكم جميعاً، سألتهمكم وأجعل عظامكم تبيضّ على الرمل». لكن عندما سمع الأطفال صوته هربوا بأقصى سرعة ممكنة، واختبأوا في كهف بين الصخور الضخمة، ووضعوا أحجاراً كبيرة عند فتحة الكهف، ولم يعد بإمكان ذئب الريح الدخول إليهم. وظل يجأر بصوت مرتفع عند باب المغارة طوال النهار والليل، لكن

الصخرة كانت ثقيلة جداً وقوية، فلم يتمكن من تحطيمها، فتابع طريقه، والغضب يعتمل في نفسه ولم يتوقف عن الصياح، ثم قال: «سأعود وأمسك بكم جميعاً. لا يمكنكم الهرب مني».

دبّ الخوف في نفوس الأطفال ومكثوا طويلاً في الكهف بعد أن ذهب ذئب الريح، لأنهم ظلوا يسمعون زئيره وصياحه من مسافات بعيدة وهو يحطّم الغابة، ثمّ خرجوا. كانوا يعرفون أنّ ذئب الريح قد قتل آباءهم وأمهاتهم في البحر، فهربوا إلى الغابة، لأنه خيّل إليهم أنهم سيكونون في مأمن هناك. وذهبوا إلى أرض الصفصاف - الصفصاف حيث وجدوا بقعة جميلة تكسوها الأعشاب والأزهار وتجري فيها الجداول. وكانت تفصل بينهم وبين بلاد الشمال حيث يعيش ذئب الريح أشجار ضخمة كثيرة ذات أوراق سميكة كانوا يعرفون أنها ستحميهم من العملاق.

وذات يوم، وفى ذئب الريح بوعده، وعاد غاضباً يبحث عنهم. جاء إلى الأرض، وأخذ يقتل كلّ من يصادفه في طريقه، لكنّه لم يتمكن من الإمساك بالأطفال، لأن الأشجار وأوراقها السميكة كانت تحجبهم عنه. وقد سمعوه يجأر في الغابة من مكان بعيد جداً. وقضى أياماً عديدة في أواخر الصيف وهو يبحث عنهم،

لكن بيتهم كان قريباً من الأشجار، وكانت الأغصان الضخمة تمتد فوقهم فأنقذتهم الأوراق السميكة التي كانت تغطيهم، ولم يستطع أحد أن يراهم إلا الشمس الجنوبية الآتية من بلاد الزهرة الصيفية. وبالرغم من جميع المحاولات التي بذلها ذئب الريح وبكلّ قوته لم يتمكن من أن يلحق بهم الأذى مع أنه كان يعرف أنّهم يختبئون هناك. وهكذا أصبحوا في مأمن دائم منه لأنهم كانوا يعيشون في أرض الصفصاف - الصفصاف.

استشاط ذئب الريح غضباً بسبب إخفاقه، لأنه كان يحبّ أن يتغذى على الأطفال الصغار، ولم يكن لغضبه حدود، وأقسم بأنّه سينتقم من الأشجار. لذلك عاد مرة أخرى، ولمساعدته، أحضر معه عملاقاً آخر من بلاد الشمال يحمل تعويذة قوية وغريبة، هي تعويذة الصقيع.

وحاول العملاقان أن يقتلا الأشجار التي أنقذت الأطفال الصغار، لكن لم تكن لديهما القوّة للقضاء عليها، لأنهما عندما وصلا، راحت الأشجار تضحك وتتمايل، وقالت لهما: «لا يمكنكما أن تلحقا بنا الأذى. إننا أقوياء لأننا جئنا أصلاً من أرض الليل - الليل في بلاد أقصى الشمال، ولا توجد لتعويذة الصقيع قوّة علينا». قالت ذلك أشجار التنوّب والشوح والشوكران

والصنوبر والسدر. لكن ذئب الريح انتقم من الأشجار الأخرى كما كان قد توعّد. ففي إحدى الليالي، عندما تربّع البدر السماء، جاء بغتة، وبمساعدة العملاق الذي يحمل تعويذة الصقيع، قتل جميع الأوراق التي خبّأت الأطفال عنه، وألقى بها أرضاً. وراحت الأوراق، الواحدة تلو الأخرى، تنفصل عن أشجار الزان والبتولا والبلوط والقيقب وجارة الماء والصفصاف. وقطع بعضها بسرعة، وتساقط بعضها الآخر ببطء، واستغرق بعضها الآخر وقتاً طويلاً حتى مات. وأخيراً، انتصبت الأشجار عارية وباردة نحو السماء، وخيم السكون والحزن على الغابة.

وراح ذئب الريح يضحك ويلهو بصمت بين الأغصان التي تعرّت من الأوراق مع العملاق القادم من أرض الليل - الليل. وقال: «لقد قضيت على الأوراق التي صدّتني، وعندما أريد أستطيع أن أقتل الأطفال». لكن الأطفال اقتربوا من الأشجار القوية والمتينة التي جاءت أصلاً من بلاد أقصى الشمال التي لا تسري عليها تعويذة الصقيع ولا تؤثر فيها، ولم يتمكن ذئب الريح من الوصول إليها، وظلت تعيش بأمان من العمالقة إلى الأبد.

واعترى الأطفال حزن شديد عندما شاهدوا ما فعله ذئب الريح بصديقاتهم الأشجار التي كانت تحميهم. وكان الصيف قد عاد إلى

أرض الجنوب، متتبعاً كما يفعل باستمرار درب قوس قزح ليعود إلى بيته في بريّة الأزهار. وأصبحت الغابة مهجورة يخيّم عليها السكون، ولم تعد تُسمع همسة واحدة بين الأشجار؛ ولم تعد هناك أوراق لأن الخريف كان قد حلّ وقتلها ذئب الريح جميعها.

وأخيراً، حان الوقت من السنة الذي يقدم فيه «غلوسكاب» الذي يحكم الأرض والذي كان عظيماً جداً في تلك الأيام، هداياه السنوية إلى الأطفال الصغار. وجاء إلى الأرض على زلاجة تجرها كلابه الوفية لكي يسمع بنفسه أمنيات الأطفال. هرع إليه الأطفال، وراح كل منهم يطلب منه هدية. وكان «غلوسكاب» يمتلك قوة كبيرة على الأرض في ذلك الزمن الغابر ويستطيع أن يفعل دائماً ما يشاء، فجاء إليه الصغار الذين حاول ذئب الريح أن يلحق بهم الأذى، وكانوا جميعاً في غاية الحزن بسبب موت أوراق الأشجار.

سألهم «غلوسكاب»: «بمَ ترغبون؟». فأجاب الأطفال: «لا نريد شيئاً لأنفسنا، لكننا نطلب أن تحيا الأوراق التي قتلها ذئب الريح لأنها أنقذتنا من غضبه الشديد وأن نعود إلى بيتها القديم بين الأشجار». لاذ «غلوسكاب» بالصمت طويلاً، وجلس يمعن التفكير كدأبه، وأخذ يدخّن كثيراً من غليونه الضخم، لأنه

مدخّن شره. وفي ذلك الحين، لم تكن على الأرض طيور صغيرة في الغابة، لأن «غلوسكاب» لم يكن قد أنشأها بعد. ولم تكن هناك إلا الطيور التي تقيم بالقرب من البحر والتي لم يكن لذئب الريح سلطان عليها، وهي النورس والكركي والبطّ البري والعقاب البحري والرفراف والإوز والكروان. وكانت هذه الطيور تسخر من العملاق الغاضب وتصرخ هازئة منه عندما تطير مبتعدة عنه وتختبئ عندما يأتي بين المياه الضحلة أو الصخور أو الأعشاب الثخينة في المستنقعات. كما كانت هناك طيور قوية تقيم مع البشر وتعمل من أجلهم، وتوفر لهم البيض والغذاء. فقد كان هناك الدجاج والإوز والبطّ والديك الرومي البرّي. وكانت تمنح البشر الطعام، لكنّها لم تكن جميلة، وكانت تتهادى في مشيتها، ولا تستطيع أن تطير كثيراً، ولا تصدر أي موسيقى جميلة على الأرض لأن أغانيها كانت مجرد بطبطة وقوقأة.

وقرر «غلوسكاب» أن يجلب إلى العالم طيوراً أخرى، لا لتوفر الغذاء، بل لتجلب السعادة إلى قلوب الأطفال في الأيام التي يمكث فيها الصيف على الأرض، بريشها الجميل وأغانيها اللطيفة. وبعد أن دخّن لفترة طويلة صامتاً، خطرت بباله فكرة، فقال للأطفال الذين يطلبون منه هداياهم السنوية: «لا أستطيع

أن أعيد الأوراق التي قتلها واقتلعها ذئب الريح إلى الأشجار، لأنه فات الأوان على ذلك. لكنني سآخذ الأوراق التي سقطت وسأحوّلها إلى طيور صغيرة، ولن تنسى الطيور كيف ولدت. وعندما يأتي الخريف ستذهب مع الصيف إلى أرض الزهرة الصيفية البعيدة، لكنها ستعود دائماً في الربيع، وستعيش أقرب ما يمكنها من الأوراق التي انبثقت منها، وستبني معظم أعشاشها في الأشجار تحت الأوراق. وحتى الطيور التي تبني أعشاشها بين الأعشاب، ستحبّ الأشجار وستمكث فيها. وستكون جميع هذه الطيور جميلة في ألوانها كـالأوراق التي نشأت منها، وستتمتع بالقوة التي تجعلها ترتاح بين الحين والآخر في الهواء كالأوراق المتطايرة، وستحمل في حناجرها صوت الهواء والماء الضاحك وهي تغني أغاني جميلة للأطفال، وسأطلب من الأطفال ألا يؤذوها مثل الأوراق التي ولدتها والتي أنقذتهم من العملاقين. وسأمنح الأشجار التي عرّاها ذئب الريح القوّة لكي تلد أوراقاً جديدة عندما يحلّ الربيع، لذلك عندما يعود الصيف من بريّة الأزهار، لن تتعرّى الأشجار. ومع أن ذئب الريح قد يعرّيها عندما يأتي بصحبة عملاق الصقيع القادم من أرض الليل – الليل، فإنها ستبّدل أوراقها في الربيع دائماً. وسأحرم ذئب الريح من معظم قوته لكي لا يتمكن من إلحاق الأذى بالأطفال.

وكدأبه لوّح «غلوسكاب» بعصاه السحرية، وانبعثت على الفور أسراب ضخمة من الطيور الصغيرة من الأرض حيث كانت تقبع الأوراق الساقطة، وراحت تزقزق وتنشد في جوقة عظيمة، وطارت عائدة إلى الأشجار. كانت ألوانها جميلة كالأوراق التي ولدت منها. وكان هناك طائر أبو الحناء ذو الصدر الأحمر، وطائر الدُجّ الذي يكسوه اللونان البني والأحمر من أوراق شجرة البلوط الحمراء والبنية، وعصفور الدوري والطائر الطنّان اللذان يكسوهما اللون الأصفر والأخضر والبني من أوراق جار الماء والصفصاف، وتوهّجت جميعها مثل الصفصاف تحت أشعة الشمس، وأخذت تصفق بأجنحتها وترفرف مثل أوراق الأشجار في الهواء. كما كانت هناك الطيور الصفراء والطيور المغرّدة الكندية التي نشأت من أوراق شجر الزان الذهبي وشجر البتولا، وطائر التناجير القرمزي وطائر الصفّارية وطائر أبو منقار ذات الألوان المتغيرة، الأحمر والأرجواني والبني، من أوراق أشجار القيقب الكندية. وكانت جميعها تغّرد للأطفال الذين غمرتهم السعادة.

ثمّ أرسل «غلوسكاب» جميع الطيور الصغيرة إلى البلاد الدافئة حتى انتهى حكم عملاق الصقيع القادم من أرض الليل

- الليل، لأن الشتاء حلّ على الأرض كلّها، واشتد البرد. أما في الربيع، فقد ظلت الطيور الصغيرة تعود دائماً من أرض الزهرة الصيفية، وتبني أعشاشها بين الأشجار في أماكن قريبة من أقربائها، وهي الأوراق التي انبثقت منها، وصارت تنشد طوال اليوم بين الأوراق من أجل الأطفال الصغار. وعند بزوغ الفجر، توقظ الأطفال بتراتيل الفجر، وعند الغسق تزقزق لكي تهدهد الأطفال حتى يناموا. وفي الليل، تختبئ بين الأوراق من ذئب الريح، وتلبث صامتة ولا تغرد ولا تغني قطّ، لأنها لا تنسى أنها الهدية التي قدمها «غلوسكاب» إلى الأطفال، وأنها انبثقت من الأوراق التي أسقطها ذئب الريح عن الأشجار لأنها أنقذت الأطفال من العملاق منذ أمد بعيد.

الأرنب وشراة الحبوب

في قديم الزمان، عندما عاش الهنود في كندا قبل أن يأتي إليها الرجل الأبيض، كان الأرنب نشيطاً جداً، وكان يعمل مرشداً في الغابة منذ فترة طويلة عند «غلوسكاب»، حاكم الناس العظيم، لكن كدحه هذا لم يحظ بالتقدير ولم ينل مكافأة لقاءه. وكان يرى جميع الحيوانات الأخرى تتسكع وتضيّع وقتها، وتجلس باسترخاء طوال النهار، لا تفعل شيئاً سوى أن تملأ بطونها بالطعام، وتنام بعد الظهر تحت أشعة الشمس الحارة، فقال: «لماذا يجب عليّ أن أعمل للناس الآخرين بينما لا يفعل أحد شيئاً لي؟ لذلك سأسترخي وسأرتاح مثل جميع الحيوانات الأخرى».

وهكذا قبع في بيته الصغير مدة طويلة، ولم يتمكن أحد من إقناعه أو دفعه إلى القيام بعمل أيّ شيء. ولما كان يعيش دائماً وحيداً، ولم يكن لديه سوى عدد قليل جداً من الأصدقاء في هذا العالم باستثناء الأولاد، فسرعان ما بدأ الملل يتسلل إلى حياته الكسولة هذه، لأنه مجدّ بطبيعته ومفعم بالحيوية والنشاط، وكان يحبّ

دائماً أن يفعل شيئاً، أو أن يتجول في الغابة وحيداً. لذلك قال: «يجب أن أجد عملاً أقوم به وإلا فقدت عقلي. لكنّه يجب أن يكون عملاً يدّر ربحاً لي، لا للناس الآخرين».

وراح الأرنب يمعن التفكير للبحث عن عمل أو مهنة يقوم بها، لكنه لم يجد شيئاً يعجبه. وأخيراً، رأى ذات يوم بعض الهنود وهم يتاجرون بالجلود والسكاكين. وكان أحدهم يبيع، والآخرون يشترون. وكان يبدو أنهم يربحون مالاً كثيراً من دون أن يبذلوا جهداً كبيراً في عملهم هذا. قال الأرنب لنفسه إن هذه حقاً طريقة سهلة لكسب الرزق. ثمّ رأى بطّة قادمة تحمل سلة مليئة بالبيض. فقال لها: «كيف تسير الأمور معك في هذا العالم؟ إذ يبدو أنك لا تفعلين شيئاً سوى الأكل والثرثرة والسباحة في البحيرة. لا يبدو أنك تفعلين شيئاً على الإطلاق»، فقالت البطّة: «إني أبيض البيض وأبيعه مقابل الذرة. لماذا لا تبيض؟ إنها عملية سهلة للغاية». لكن عرف الأرنب أنّ البطّة تسخر منه، وأنه لم يُخلق ليكسب رزقه بهذه الطريقة.

ثمّ صادف نحلة على طريق الغابة وقال لها: «كيف تكسبين رزقك أيتها النحلة التي تطوف من مكان إلى مكان؟ أنت لا تفعلين شيئاً سوى التسكع طوال النهار، والتنقل من زهرة إلى

أخرى مرتدية ثيابك الجميلة الصفراء والسوداء، ومنشدة دائماً أغنيتك الخالية من أي لحن؟»، فقالت النحلة: «أنا أصنع العسل والشمع وأبيعهما. وقد أصبح عندي الآن مخزن كبير أبيع فيه. لماذا لا تفعل مثلما أفعل؟ فأنا دائماً سعيدة، ولا أتوقف عن الغناء وأنا أعمل، والأهم من ذلك كله، فإن أغنيتي ليست بلا لحن. وبسبب وقاحتك، خذ هذه». وما إن أنهت كلامها حتى لدغته في أنفه، ومضت في طريقها وهي تدندن أغنيتها. ففرك الأرنب أنفه في التراب ليخفف من ألمه، وأقسم بأن يثأر من النحلة لأنه عرف أنها كانت تسخر منه أيضاً. لكنّه لم يستطع أن يفكّر بطريقة سهلة لكسب رزقه، وذلك لأنه لا يملك شيئاً يمكنه أن يبيعه سوى معطفه، ولا يمكنه أيضاً أن يقايض به، لأن الشتاء سيحّل قريباً. فاستبدّ به الغضب والانزعاج الشديدين، وحسد البطّة والنحلة على حظّهما الحسن لأنهما تنتجان البيض والعسل والشمع.

وبدأ أخيراً يفكّر بالهنود الذين رآهم يبيعون ويشترون الجلود، ثم صاح: «وجدتها، وجدتها. سأصبح تاجراً كبيراً. سأعيش في مزرعة يزرعون فيها الذرة والخضراوات، وسأسرقها وأبيعها إلى الحيوانات الأخرى، وبذلك أجمع نقوداً كثيرة. سأصبح فاحش الثراء خلال فترة قصيرة». وهكذا، توجّه والسعادة تغمره إلى

حقل قريب من مزرعة للخضراوات حيث تُزرع الذرة الهندية وجميع أنواع الحبوب التي يعرف أن الطيور والحيوانات الأخرى ستقبل على شرائها منه. لذلك، علق أمام بيته لافتة تقول: «اشتر ذرة الأرنب، أفضل ذرة على وجه الأرض، إنها تنمو بلا مطر، لم يتبق منها سوى كميات قليلة. تُسجّل طلبات الشراء هنا»، ثمّ جلس في بيته ينتظر.

وسرعان ما بدأ يصل العديد من الشراة الذين انتابهم الفضول، وأرادوا أن يعرفوا أي نوع من التجار هو الأرنب. فأوضح لهم أنه مجرد وكيل، وأنهم يجب أن يدفعوا له النقود سلفاً، وسيأخذها بدوره إلى المزارع، وسيسلّمهم الحبوب التي اشتروها منه من أمام بيته بعد أسبوع واحد من ذلك اليوم. فدفع له المشترون نقودهم وذهبوا، لأنهم كانوا يخشون أن يقتلهم المزارع إن هم ذهبوا بأنفسهم لشراء الذرة. وأودعوا لدى الأرنب مبالغ كبيرة من النقود. وفي الليلة التي ظهر فيها القمر فوق التلال، ذهب الأرنب إلى حقل الذرة المجاور، لكن المزارع كان قد رآه وهو يسرق في عصر ذلك اليوم، وأقام سِياجاً قوياً من الشبك حول حقل الذرة لذلك لم يتمكن الأرنب المسكين من اجتيازه، كما نشر كلاباً كثيرة حول الحقل

لحراسته وراحت تنبح وتعوي لتبث الخوف في نفوس اللصوص وتجعلهم يلوذون بالفرار. وليلة بعد ليلة، حاول الأرنب التسلل إلى الحقل، لكن من دون جدوى. ومضى الأسبوع كله من دون أن يحصل على الذرة التي وعد بها زبائنه الذين كان يعرف أنهم سيأتون بعد فترة قليلة لتسلمها. وفي تلك الأثناء، كان قد أنفق نقودهم كلها، وكان يعرف أنهم سينقضون عليه ويقتلونه إذا لم يف بوعده ويسلمهم البضاعة التي اشتروها.

وعندما جاء اليوم المتفق عليه أخيراً، رأى زبائنه قادمين لاستلام الحبوب كما وعدهم. وكان يأمل في أن تنقذه حيله وألاعيبه، كما أنقذته في مرات كثيرة سابقة. كان جالساً في فناء بيته يعزف على الناي عندما وصلت أول زبونة، دودة الأرض. فبادرها الأرنب: «طاب يومك». فأجابت دودة الأرض: «طاب يومك. لقد أتيت لاستلام الذرة التي اشتريتها بعد انقضاء الأسبوع»؛ فقال الأرنب: «حسناً، لكن يجب أن نتناول العشاء أولاً. سيكون جاهزاً بعد بضع دقائق. لابد من أنك جائعة بعد رحلتك الطويلة». وبينما جلسا ينتظران عشاءهما شاهدا البطّة، الزبونة الثانية، تتهادى في مشيتها فوق الدرب حاملة سلتها حول رقبتها. فقال الأرنب: «ألا تريد البطّة العجوز القادمة إلى

هنا أن تأكلك؟»، فقالت دودة الأرض: «بلى، بلى، أين يمكنني الاختباء؟». وكانت خائفة جداً، فقال الأرنب: «اختبئي تحت صدفة الحلزون هذه». وهكذا، زحفت دودة الأرض تحت صدفة الحلزون ولبثت هناك من دون أن تأتي بحركة، وهي ترتجف خوفاً على حياتها.

وعندما وصلت البطّة، قال الأرنب: «عمت صباحاً»، فقالت البطّة: «عمت صباحاً أيها السيد التاجر»، فقد أرادت أن تكون مهذبة، وأضافت: «لقد أتيت لاستلام الذرة التي اشتريتها لأن اليوم هو اليوم المحدد لتسليمها»، فقال الأرنب: «صحيح، صحيح. لكن أولاً يجب أن نتناول العشاء الذي سيكون جاهزاً بعد بضع دقائق. إنه لشرف لي أن تشاركيني طعام العشاء». وعندما جلسا ينتظران العشاء، قال الأرنب: «هل تريدين أن تأكلي دودة الأرض قبل أن تتناولي طعام العشاء؟ ستكون طعاماً لذيذاً لك». فقالت البطّة: «شكراً جزيلاً، إنني مغرمة بديدان الأرض». فرفع الأرنب صدفة الحلزون وسرعان ما التهمت البطة دودة الأرض. وقال الأرنب لنفسه ضاحكاً: «الآن سأتخلّص من جميع زبائني».

وبينما جلس الأرنب والبطّة يتحدثان، شاهدا الثعلب يخب فوق الدرب. وقد جاء بدوره ليستلم الذرة التي اشتراها. فقال الأرنب بلطف وأدب شديدين: «سيدتي، إني أرى عدوك القديم الثعلب قادماً. لعله يريد أن يأكلك. من الأفضل لك أن تختبئي». فارتجفت البطة وقالت بلهفة: «بلى، بلى، أين يمكنني الاختباء؟»، فقال الأرنب: «اختبئي تحت هذه السلة». وهكذا زحفت البطّة تحت السلة المقلوبة ولبثت هناك من دون حراك.

وسرعان ما جاء الثعلب وقال: «عمت صباحاً أيها الأرنب. لقد أتيت لاستلام الذرة التي اشتريتها، لأنني في حاجة ماسة إليها لكي اصطاد الدجاج بواسطتها، وها قد انقضت الأيام السبعة». فقال الأرنب: «أنت دقيق جداً في مواعيدك، لكن دعنا نتناول العشاء أولاً. سيكون العشاء جاهزاً خلال دقائق، وسيجعلك أكثر قوة لتتمكن من حمل حملك الثقيل». وبينما جلسا ينتظران طعام العشاء، قال الأرنب: «اسمع أيها الثعلب. ألا ترغب في أن تتناول بطّة سمينة الآن؟ فهي ستكون طعاماً لذيذاً قبل العشاء». فقال الثعلب: «أنت في غاية اللطف. فأنا أحبّ دائماً أن أتناول

بطّـة قبل العشاء». فقلب الأرنب السلـة، فالتهم الثعلب البطّة المسكينـة بسرعـة حتـى لم يبق عليهـا ريشة واحـدة. ضحك الأرنب وقـال لنفسه: «من المؤكد أننـي سأتخلّص من زبائني بسهولـةكبـيرة».

وبينما جلس الأرنب والثعلب يتحدثان عن الأيام الخوالي في الغابة، شاهدا الدب يمشي بتثاقل فوق الدرب، ملقياً برأسه ذات اليمين وذات اليسار، ومتشمماً الهواء. قال الأرنب: «إن مزاج الدبّ سيئ اليوم. إني أتساءل عن السبب»، فقال الثعلب: «لقد سرقت عسله كلّه هذا الصباح وقد رآني وأنا أهرب». فقال الأرنب: «لابدّ من أنه يشّم رائحتك هنا، ألن يقتلك إذا وجدك؟ ربما تعين عليك أن تختبئ». فقال الثعلب: «صحيح، صحيح، لكن أين أختبئ؟». فقال الأرنب: «عليك بهذا الصندوق»، فقفز الثعلب إلى داخل الصنْدوق، وأغلق الأرنب الغطاء عليه.

وعندما وصل الدبّ قال بفظاظة وبصوت خشن، لأنه كان معتكر المزاج: «طاب يومك أيها الأرنب. لقد جئت لأستلم الذرة التي اشتريتها، وأنا في عجلة من أمري». فقال الأرنب: «حقاً إنه الوقت المحدد لاستلامها، لكن يجب أن نتناول العشاء أولاً. سيكون جاهزاً بعد بضع دقائق، وأنا لا أدع زائراً يغادر

بيتي من دون أن يتناول من طعامي أولاً. لديّ اليوم طبق من السمك الطازج الذي تحبّه كثيراً، ولم نتعشَ قبل الآن معاً»، فوافق الدبّ على الانتظار، وأخذ يفكر بالوجبة التي سيتناولها لأنه يحبّ السمك كثيراً، وراح يكلمه بلطف. ثمّ قال الأرنب: «لديّ سرّ أريد أن أفضي به إليك. دعني أقله لك همساً»، وقرّب فمه من أذن الدبّ وقال: «إن الثعلب الهرم، اللصّ الماكر الذي سرق عسلك هذا الصباح، مختبئ في هذا الصندوق هناك. لقد جاء إلى هنا ليتباهى بسرقته، وأخبرني وهو يضحك بصوت عال كيف أنه خدعك بسهولة. وقال إنك بلا عقل». غضب الدبّ كثيراً، وعلى الفور رفع الغطاء من الصندوق، وأهوى بكفّه القوية على الثعلب وقتله. وقال الأرنب لنفسه: «كم أنا محظوظ. ها قد ذهب زبون آخر». لكنّه تساءل كيف يمكنه أن يتخلّص من الدبّ، وحك رأسه مفكراً.

وبينما جلس الدبّ والأرنب يتسامران، شاهدا آخر زبون من زبائن الأرنب، وهو كلب الصيد. همّ الدبّ ليهرب، لكن الوقت كان قد تأخّر كثيراً. «ألا يريد كلب الصيد أن يقتلك؟»، قال الأرنب، سعيداً لأنه فكّر بأن نهاية الدبّ المسكين قد أزفت. فقال الدبّ: «بالفعل سيفعل ذلك»، وأضاف: «يا إلهي، يا

إلهي، أين سأختبئ؟». فقال الأرنب: «اختبئ تحت سريري». اندفع الدبّ المسكين بسرعة إلى البيت وزحف تحت سرير الأرنب بصعوبة بالغة لأنه كان سميناً جداً وكان السرير واطئاً، وكان عليه أن يتمدد على الأرض، لكنّه شعر بالارتياح لفكرة أنه سيهرب قريباً. وعندما وصل كلب الصيد قال: «طاب يومك أيها الأرنب، لقد أتيت لاستلام الذرة التي اشتريتها لأن أطفالي بحاجة إلى الخبز»، فقال الأرنب: «ستستلمها، لكن يجب أن نتناول الطعام أولاً. لا يوجد أشياء كثيرة أقدمها لك، لكنّي أستطيع أن أقدم لك بعد قليل فطائر ساخنة وعصير القيقب الطازج». غمرت السعادة كلب الصيد لأنه سيتناول وجبة دسمة، وقال إنه مستعد للانتظار، ثمّ قال الأرنب: «هل تريد أن تأخذ لحم الدبّ لتطعم أطفالك، وجلد الدبّ الدافئ لموقدك؟»، فقال كلب الصيد: «أريده حقاً. ففي هذه الأيام يصعب العثور على هذه الأشياء»، فقال الأرنب: «لا، لا يصعب العثور عليها، فهناك دبّ سمين يختبئ تحت سريري في بيتي. وهو ممدد على ظهره، ويمكنك أن تقتله بسهولة». هرع كلب الصيد إلى البيت، وكما كان متوقعاً، وجد دبّاً ممدداً على ظهره تحت السرير. فقتله بضربة واحدة وسلخ جلده وقطّعه إلى شرائح صغيرة، ووضع اللحم والجلد في كيس ليأخذه إلى أطفاله. وبينما يفعل ذلك، توّجه

الأرنب إلى الغابة، وهو يقول لنفسه: «لقد تخلصت الآن من جميع زبائني وأصبحت في مأمن. لكن حياة التاجر لا تروق لي. لن أصبح تاجراً. سأجمع الذرة لنفسي، ولن أبيعها للآخرين»، وراح يجري بسرعة مبتعداً واختبأ وراء أجمة كثيفة.

وعندما انطلق كلب الصيد يبحث عن الأرنب، لم يعثر عليه، ولم يعثر على أي حبوب لديه. ومع أنه ظنّ أنّه أحسن صنعاً عندما قدم له كمية كبيرة من اللحم، فقد أقسم بأنه سينتقم من الأرنب لأنه خدعه، ولا يزال يبحث عنه حتى يومنا هذا، وإن عثر عليه، فلن يسمح له بالهروب. وهكذا يعيش الأرنب وحيداً هارباً من كلب الصيد كلما استطاع ذلك، لأنه يخافه بسبب الحيلة التي مارسها عليه منذ قديم الزمان.

بابا نويل والأطفال

كان هناك طفلان توأمان يعيشان مع جدتهما العجوز في مكان بعيد في الغابة الكندية. وكان الفتى يدعى بيير، والفتاة تدعى إستيل، ولم يكن من السهل تمييزهما إلا بواسطة ثيابهما. وقد مات أبواهما في الربيع، وفي الصيف، غادرا بيتهما القديم بسبب الذكريات الحزينة الكثيرة فيه وانتقلا للعيش مع جدتهما العجوز في بيت جديد في مكان آخر. وفي ذلك البيت الجديد في الغابة، عاشا فقراً مدقعاً، لكنهما لم يكونا حزينين. وقد عاشا وجدتهما أياماً عصيبة، فمهما بذلت العجوز المسكينة من جهد، لم تستطع أن توفر لهما قدراً كافياً من الطعام. لكنّهما صارا يصطادان السمك في الجداول، ويقطفان التوت والفواكه ويجمعان بيض الطيور في التلال المكسوة بالأشجار، وكان يتوافر لهما قدر من الطعام بطريقة ما أثناء فصل الصيف. وفي أواخر الخريف، تجمّدت مياه الجداول، ولم يتبق هناك توت، ولم يعد هناك بيض لأن جميع الطيور طارت جنوباً، وأخذا يشعران بالجوع، لأنه لم يعد لديهما سوى القليل من الطعام.

وكانت جدتهما تعمل بجدّ لتعيل نفسها وتعيلهما إلى أن مرضت أخيراً. ولم تتمكن من مغادرة سريرها لأيام عديدة، وقالت: «أريد قليلاً من حساء اللحم لكي تتحسن صحتي، لذلك يجب أن أحصل على لحم جيد. وإذا لم أحصل على اللحم، فلن أستطيع أن أصنع الحساء، وإذا لم أحصل على الحساء فلن تتحسّن صحتي، وإذا لم تتحسن صحتي فسأموت، وإذا متّ فلابد من أن طفليّ سيتضوران جوعاً، وسيموتان أيضاً. لذلك، لن ينقذنا شيء من التضور جوعاً والموت إلا اللحم». ولكي تظل جدتهما على قيد الحياة، انطلق الطفلان ذات صباح بحثاً عن اللحم لإعداد الحساء لجدتهما. وكانا يعيشان في مكان بعيد عن الناس، ولم يعرفا في أيّ اتجاه يذهبان، لكنّهما أخذا يسيران في درب الغابة. وكانت طبقات الثلج السميكة تكسو الأرض وتتلألأ تحت أشعة الشمس. ولم يكن الطفلان قد ذهبا إلى مكان بعيد عن البيت وحدهما من قبل، فأثار اهتمامهما كلّ مشهد جديد رأيه، خاصة الأرنب الذي راح يقفز فوق الثلج، وطير الثلج الذي أخذ يرفرف ويزقزق فوقهما، بحثاً عن الطعام كما كانا يفعلان. وكان نبات الآس البري ينمو في أماكن كثيرة، ونبات الهدال يتدلى من الأشجار. وعندما رأى بيير هذه النباتات قال: «سيأتي بابا نويل قريباً إلى هنا، لأن الأشجار مزدانة، ومستعدة

لقدومه». فقالت إستيل: «نعم، سيأتي بابا نويل قريباً». وكانا في غاية السعادة عندما أخذا يفكّران بمجيئه.

وبينما يسيران بعد الظهر، صادفا شيخاً جالساً عند باب بيت صغير مصنوع من أغصان شجرة التنوب تحت الأشجار القريبة من درب الغابة. وكان منهمكاً في صنع صافرات من أغصان الصفصاف بسكين، ناقراً برقة على قشر الأغصان كي ينزلق من الخشب بسهولة. وقف الطفلان يراقبانه في عمله الغريب، لأن عينيه كانتا تلمعان بفرح، وله وجه خشن متغضن لطيف، وشعره أبيض سميك، لذلك لم يخافا منه.

قال الشيخ: «مرحباً».

فقال بيير: «مرحبا. لماذا تصنع صافرات من أغصان الصفصاف؟».

فقال الشيخ: «إني أصنعها من أجل بابا نويل الذي حان موعد زيارته السنوية. وفي واقع الأمر، فهو موجود في الأرض، وسيقوم بجولاته ويوزع الصافرات، من بين أشياء أخرى، على الأطفال الطيبين، ويجب أن أجهّز كمية كبيرة منها له لأنه هناك عدد كبير من الأطفال الذين سيوزعها عليهم».

ثمّ واصل عمله، وراح الطفلان يراقبانه لفترة طويلة صامتين، وقالا في نفسيهما يا له من شيء جميل أن يفعل المرء كما يفعل الشيخ من أجل بابا نويل وهو قابع في بيته الصغير المصنوع من الأغصان تحت أشجار الغابة. ثمّ قال الشيخ: «إنكما طفلان صغيران جداً، عما تبحثان في مكان بعيد لا يوجد فيه أناس؟»، فأجابت إستيل: «إن جدتنا العجوز مريضة جداً، وإننا نبحث عن لحم لنصنع منه حساء كي تتحسن صحتها». وأسف الشيخ لعدم وجود لحم لديه، لأنه يقتات على نوع آخر من الغذاء، وأخبرهما بأنه يوجد في مكان بعيد جزّار يحتفظ دائماً بكمية من اللحم، لكنه قال إن الجزّار رجل شرّير جداً، والأطفال الذين يدخلون إلى دكانه قد لا يخرجون منها، وخاف الطفلان عندما سمعا ما قاله لهما الشيخ، وتساءلا إن كان من الأفضل لهما أن يعودا إلى البيت. لكن الشيخ فكّر طويلاً بصمت، وهو لا يزال منهمكاً في بري أغصان الصفصاف، ثم قال: «سأعطي كلّ واحد منكما صافرة، وعندما يصفّر أحدكما فيها، فإن بابا نويل سيسمعكما، ويجب ألا تصفّرا إلا عندما تكونان في ضيق شديد، أو إذا وقعتما في ورطة كبيرة، وعندما يسمعها بابا نويل فإنه سيعرف أنكما في محنة أو أنّ ضرراً قد لحق بكما، لذلك سيأتي بنفسه أو سيرسل أحداً لمساعدتكما. لكن يجب أن تصفرّا مرة واحدة

فقط. ويجب أن يقدم بابا نويل وحده الصافرة عندما يأتي في الوقت الذي ينمو فيه الآس البري على الأرض. لكنّ بما أنكما طفلان طيبان وجدتكما العجوز مريضة وتسعيان لأن تتحسن صحتها، فإني أعرف أنّ بابا نويل لن يمانع». وهكذا أعطى كلاً منهما صافرة، وعندها زال الخوف عنهما، لأنهما كانا يعرفان أنّهما لن يتعرضا للأذى إذا ما حصلا على مساعدة بابا نويل.

عندما حلّ المساء، كان الطفلان يشقان طريقهما متجهين إلى محل الجزّار الشرّير. لكنّ الخوف بدأ يتملكهما، وبينما واصلا طريقهما، بدأ قلباهما يرتجفان، وراحا يتساءلان إن كان الشيخ صادقاً فيما قاله عن الصافرة، أو أنه كان في واقع الأمر يعمل سراً لصالح الجزّار الشرّير، ويحاول أن يوقعهما في الشرك. لكنهما عزما على البحث عن اللحم في مكان آخر وألا يذهبا إلى دكان الجزّار.

بحثا طويلاً، لكن من دون جدوى. ولم يجدا لحماً في جميع الأماكن التي توقفا فيها ليسألا عن الطعام. وسرعان ما رأيا دكان الجزّار. استبدّ بهما الخوف، لكن الشمس كانت قد غابت وراء الأشجار، وبدأ الليل يهبط، وكانا يعرفان أنهما إذا أرادا أن تتماثل جدتهما للشفاء فيجب أن يجلبا لها بعض اللحم

ليعّدا لها الحساء. بدت الدكان لطيفة وجذّابة في تلك الأمسية الشتوية الباردة، وكان ضوء دافئ يتوهج من نار موقدة وراء الباب، وكان معروضاً في الواجهة الزجاجية نقانق وطيور سمينة وقرع أصفر كبير وكعك مكسو بالتوت الأحمر. كان الطفلان جائعين، وتمنيا تناول شيء بالقرب من نار الدكان الدافئة. ثم قرّرا أن يدخلا الدكان بالرغم من خوفهما ليشتريا قليلاً من اللحم لإعداد الحساء لجدتهما بأسرع ما يمكنهما. لكنهما قبل أن يدخلا قالا في نفسيهما إنه من الأفضل، من أجل سلامتهما، أن ينفخا في الصافرة كما أخبرهما الشيخ لكي يعرف بابا نويل أنهما في محنة أو أنهما معرضان للأذى. وقفا قليلاً تحت ظلّ الأشجار الباسقة أمام الباب، واستعدا لينفخا في صافرتيهما. أعطى بيير الإشارة وأطلق صفرة ناعمة طويلة. لكن إستيل لم تستطع أن تخرج صافرتها من جيبها، وكان بيير قد أنهى صفرته وهو يلهث، قبل أن تستعد أخته لتطلق صافرتها، فقال لها: «لا تصفّري الآن، إنك تتأخرين دائماً مثل جميع الفتيات. لكنها نفخت في صافرتها كما أخبرها الشيخ، وقبل أن يتمكن بيير من أن ينهيها عن ذلك، كانت قد أطلقت صفرة ناعمة طويلة. انزعج بيير كثيراً لأنه ظنّ أن لا جدوى من ذلك. وبعد أن أطلقا صفرتين، دخل هو وأخته إلى دكان الجزّار.

كان الجزّار الشرّير وحيداً في الدكان الذي خيّم عليه الهدوء. أحس الرجل بسعادة كبيرة عندما رأى الطفلين وأجلسهما بالقرب من النار الدافئة، وقدّم لهما الطعام. ومع أنه أوصد الباب وراءهما بإحكام، سرعان ما تلاشت مخاوفهما. وبعد أن تناولا طعامهما وشبعا وأحسا بالدفء ثانية، سألاه عن اللحم لصنع حساء لجدتهما العجوز، فقال الجزّار إنه سيعطيهما كمية كبيرة من اللحم الجيد رغم ندرة توافره في الأرض كلها. وفي زاوية من الدكان، انتصب برميل، وفي الزاوية الأخرى، انتصب برميل كبير يكاد يصل إلى السقف، وقال الجزّار إن كلاهما مليء باللحم.

وكان الجزّار صديقاً وشريكاً حقيقياً لعملاق شرّير يعيش في الغابة ويحب كثيراً أن يأكل الأطفال. ولم يكن يفضل طعاماً شهياً أكثر من وجبة طعام تتألف من الصغار، وكان يحب أن يأكل طفلين في الوجبة الواحدة، بعد أن ينقعهما في محلول ملحي. وكان يأكل الأطفال كلما تمكن من الحصول عليهم، لكنّه لم يكن يفلح دائماً في العثور عليهم لأن وجودهم نادر على الأرض. كان صيّاداً ماهراً وشديد البأس، يستطيع أن يقتل الكثير من الحيوانات في الغابة ليوفر لنفسه كميات كبيرة من اللحم، التي

يأتي كلّ أسبوع بكميات كبيرة منها، ويأخذ بدلاً منها أطفالاً صغاراً يكون الجزّار قد تمكن من إغرائهم واستدراجهم إلى دكانه. لذلك كان الجزّار يحصل على قدر كبير من اللحم من دون كلفة أو عناء. وكان الشيخ الذي يعيش في بيت مصنوع من الأغصان محقاً عندما قال إن عدداً كبيراً من الأطفال الصغار الذين كانوا قد دخلوا إلى دكانه لم يخرجوا منه ثانية.

غمرت الجزّار سعادة كبيرة عندما رأى الطفلين الصغيرين الجميلين. وكان يتوقّع قدوم العملاق في ذلك المساء خلال زيارته الأسبوعية، وكان سعيداً لأن العملاق سيعطيه كمية كبيرة من اللحم لقاء هذين الطفلين، لأنه سيطلب سعراً عالياً، وكان يعرف أن العملاق سيعطيه كلّ ما لديه من اللحم لكي يعدّ له وجبة طعام جيدة. وفكّر كذلك بالمال الذي سيحصل عليه لقاء كمية اللحم التي سيعطيها له العملاق. لذلك عزم على أن يقتل الطفلين وأن ينقعهما في محلول الملح ريثما يأتي العملاق.

عندما أنهى الطفلان وجبة طعامهما وتدفّآ بالقرب من النار، أخذا يستعدان للعودة إلى البيت وطلبا منه اللحم، فقال الجزّار إنه سيحضره لهما. رفعا عينيهما وشاهدا الرفوف المليئة بكميات من الطعام لم يريا مثلها طوال حياتهما. فقالا: «توجد كمية كبيرة من

البصل هنا. سنشتري قليلاً منه وسنأخذه إلى البيت لإضافته إلى حساء اللحم الذي سنعدّه لجدتنا». فقال الجزّار: «توجد أنواع كثيرة من البصل في الصندوق على الرفّ العالي. يجب أن تختارا النوع الذي تريدان. سأرفعكما إلى الرفّ كي تريا بنفسيكما». فأمسكهما من معطفيهما بين أكتافهما، وبقوّته الهائلة، رفعهما كي يتمكنا من أن ينظرا في الصندوق ويختارا نوع البصل الذي يريدان. وعندما أنزلهما دفعهما إلى مسافة ذراع عنه، فراحا يضحكان من شدة قوته، ثمّ جمعهما معاً بقوة شديدة حتى ارتطم رأس أحدهما بالآخر، وصُعقا من شدة الضربة، ثمّ ألقى بهما من رأسيهما في البرميل القابع في الزاوية المليء بمحلول الملح الذي لا يوجد فيه لحم كما ادّعى، وتركهما هناك حتى ينتقعا في المحلول. كان في غاية السعادة بسبب كمية اللحم التي سيحصل عليها من عملية المقايضة التي سيجريها مع العملاق الذي يعرف أنه سيأتي بعد بضع دقائق.

وسرعان ما وصل العملاق حاملاً على ظهره كمية كبيرة من اللحم، وجارّاً زلاجة مثقلة بالحيوانات التي اصطادها. قال الجزّار عندما رآه يدخل الدكان الدافئ: «يا لها من ليلة رائعة ويا لها من ثروة؟ عندي طفلان سمينان لك هذه الليلة أنقعهما

في محلول الملح»، ثمّ فتح غطاء البرميل القابع في الزاوية وأرى العملاق الطفلين الصغيرين وقد برز رأساهما أولاً في المحلول. تلمظ العملاق بشفتيه الغليظتين وضحك، وأخذ يفرك يديه الضخمتين. شعر بسعادة كبيرة عندما رأى وجبة الطعام الدسمة، وقال: «سنتركهما منقوعين في محلول الملح حتى الغد. إني أحبّهما منقوعين بالكثير من محلول الملح». غطّيا البرميل، وأخذا يتساومان على شراء اللحم. ووافق العملاق على أن يعطي الجزّار كمية اللحم كلها التي جلبها لقاء هذين الطفلين، ثمّ جلسا يشربان ويأكلان بالقرب من الموقد حتى ساعة متأخرة من الليل. قال العملاق إنه سيلقي نظرة أخرى على الطفلين قبل أن ينام ليرى كيف أصبح حالهما في المحلول. وهكذا ذهبا إلى البرميل وكشفا الغطاء.

تصادف الآن أن بابا نويل كان على الأرض آنـذاك، كما قال الشيخ صاحب البيت المصنوع من الأغصان. فقد جاء إلى الأرض ليوزع هداياه السنوية على الأطفال الصغار. وفي المساء، كان قد أصبح على مسافة عدة أميال من دكان الجزّار، لكنّه سمع الصفرة الرقيقة الطويلة التي حملتها ريح المساء الساكنة. عرف أنها صادرة من إحدى صافراته، وعرف أن الطفلين الصغيرين في

خطر. لكن عندما أعقبتها الصفرة الرقيقة الأخرى التي أطلقتها إستيل لاحقاً، فقد عرف أن الخطر لم يكن قريباً من الطفلين، وأنه لا يزال بعيداً عنهما، لذلك قال لنفسه إنه لا داع للعجلة ليقدم للطفلين المساعدة. وكان في ذلك الحين يضع دمى صغيرة للأطفال في بيوتهم الصغيرة في الغابة، وقرّر أن ينتظر حتى ينتهي من توزيع الهدايا جميعها قبل أن ينطلق إلى المكان الذي انطلقت منه الصفرة.

وأخيراً، أصبح بإمكانه أن يمضي في طريقه. كان الثلج يغطي الغابة بكثافة، مما جعل الخوض فيه صعباً للغاية، لكن قمر الشتاء الأبيض كان مشرقاً، وأضاء الدرب، لذلك مضى بابا نويل بسرعة منتعلاً حذاءه الثلجي. وفي ساعة متأخرة من الليل، وصل إلى دكان الجزّار الذي عرف أن إشارة الاستغاثة التي أرسلها الطفلان قد انطلقت منه. وعندما دخل الدكان، وجد العملاق والجزّار يلقيان نظرتهما الأخيرة على الطفلين الغائصين في البرميل والمنقوعين في المحلول الملحي قبل أن يخلدا إلى النوم. لم يكن أحدهما يعرف بابا نويل، لكن ما إن رأياه حتى أعادا الغطاء بسرعة إلى البرميل باضطراب شديد. فساور بابا نويل الشك في أنهما يضمران شرّاً، وعرف بطريقة

أو بأخرى أن للبرميل صلة بالشرّ المروّع الذي عرفه من صفرة الطفلين، وحدس أن الطفلين مختبئان فيه. لذلك قال: «لقد أتيت لأشتري قليلاً من اللحم. أريد أن أشتري لحماً منقوعاً في محلول الملح. أريد قطعة من اللحم من ذلك البرميل». لكن الجزّار قال: «إنه ليس لحماً جيداً. يوجد لدي لحم أفضل في الغرفة الداخلية، وسأجلبه لك». وهكذا دخل الجزّار وبابا نويل إلى الغرفة الداخلية وأغلق الباب خلفهما، بينما جلس العملاق على البرميل القابع في الزاوية، في محاولة لإخفائه وراء ساقيه السمينتين الضخمتين.

في الغرفة الداخلية، كان هناك برميل ممتلئ بالمحلول الملحي، لم تكن فيه سوى قطعة صغيرة من اللحم في قعره. فقال بابا نويل إنه سيأخذ قطعة اللحم تلك. انحنى الجزّار فوق البرميل ليحضر قطعة اللحم. لكنه ما إن فعل ذلك، حتى رفعه بابا نويل من ساقيه، ودفعه إلى البرميل ذي المحلول الملحي ورأسه يسبقه. بدأ يدمدم ويرفس بساقيه، لكنّه علق في البرميل، ولم يستطع الخروج منه. وضع بابا نويل الغطاء فوق البرميل، ووضع فوقه ثقالة، وكانت تلك نهاية الجزّار الشرّير.

ثمّ عاد بابا نويل إلى الدكان حيث يجلس العملاق فوق البرميل. وقال له إنه يريد قطعة اللحم الموجودة في قاع البرميل الكبير في الزاوية. وطلب من العملاق أن يجلبها له لأنه لم يستطع والجزّار الوصول إلى قعره.

انحنى العملاق في عمق البرميل وبدأ يبحث عن قطعة اللحم في قعره. فتناول بابا نويل قطعة عظم كبيرة عن الأرض، وضرب العملاق ضربة قويّة على رأسه. ذُهل العملاق قليلاً وفقد توازنه، وسقط يسبقه رأسه في المحلول الملحي. وأخذ يصيح ويرفس بقدميه، لكن كتفيه الضخمتين علقتا في الأسفل بقوة. وغطّى بابا نويل البرميل، وترك العملاق عالقاً في المحلول الملحي، وكانت تلك نهاية العملاق.

ثـمّ رفع بابا نويل غطاء البرميل القابع في الزاوية الذي كان قد رأى الجـزّار والعملاق ينظران في داخلـه عندما وصل إلى الـدكان. ورأى الطفلين واقفين واقفـين بالمقلوب في داخله. فأمسكهما مـن ساقيهما وسحبهما، وبقوّته السحرية أعادهما إلى الحيـاة، ثم قدّم لهما الطعام ودفّأهما بالموقد، ونسيا بسرعة أسـوأ ساعـة أمضياهـا في حياتهمـا في ذلـك البرميـل المليء بالمحلول الملحي.

ثمّ قدم لهما قليلاً من اللحم وأعادهما إلى جدتهما. وفي البيت صنعا لجدتهما الحساء فشفيت بسرعة، وعاشوا جميعهم بسعادة، ولم يعد العمالقة يعكّرون صفو الأرض، لأن بابا نويل لم يعد يسمح بأن تصيب الأطفال أي أذية إذا أبقوا صافراتهم بقربهم دائماً وأطلقوا منها صفرة رقيقة عندما يتعرضون لمحنة أو مشكلة.

سقوط الرجل العنكبوت

في قديم الزمان، كان الرجل العنكبوت يعيش في بلاد السماء، وكان يقيم وحيداً في بيت صغير مضيء، حيث ينسج شباكه سلالم رقيقة وطويلة جداً يصعد بواسطتها الناس إلى السماء ويهبطون منها إلى الأرض. وكان سكان النجوم يهبطون غالباً في الليل إلى الأرض ويطوفون فيها كجنّيات الضوء، ويفعلون أشياء جيدة للنساء والأطفال الصغار. وكان الرجل العنكبوت يكدّ في العمل، ناسجاً شباكه، وغازلاً الخيوط التي يصنع منها سلالمه. وفي أحد الأيام، بينما ينال قسطاً من الراحة من عمله المرهق، نظر إلى الأسفل إلى بلاد الأرض فرأى عدداً كبيراً من سكان الأرض يلعبون ألعاباً، أو يستخرجون سائلاً حلواً من أشجار القيقب، أو يجمعون التوت من التلال. لكنه وجد معظم الرجال يتسكعون بتكاسل ولا يعملون شيئاً. أما النساء فكن يعملن جميعهن، كما كان الهنود يفعلون في تلك الأيام. فقال الرجل العنكبوت في نفسه: «أريد أن أذهب إلى بلاد الأرض

حيث يتسكع الرجال ويضيعون وقتهم، وسأتزوّج أربع زوجات ليقمن على خدمتي بينما أعيش حياة سهلة رغدة، لأني بحاجة إلى الراحة».

كان قد تعب كثيراً من عمله بين سكان النجوم لأنهم ما كانوا يسمحون له بالتوقف عن نسج الشباك، وعندما ينشد الراحة لا يسمحون له بالتوقف عن العمل، بل يركلونه بشدة، ويطلقون عليه أسماء مثل «الرأس البليد» و«العظام الكسولة»، وأسماء فظة أخرى، ويطلبون منه أن يعمل أكثر. فاستشاط غضباً وعزم على أن يعاقب سكان النجوم لأنهم لا يسمحون له بالراحة. وكان يخيّل إليه أنه إذا عاقبهم وبدأ يزعجهم، فإنهم سيكونون سعداء بالتخلص منه. وهكذا خطرت له خطة ماكرة، فعندما كانت جنيات النجوم يتسلّقن السلم كلّ ليلة عائدات إلى بلاد السماء، كان الرجل العنكبوت يقطع خيوط السلّم ما إن يقتربن من السماء، فيقعن ويرتطمن بالأرض بقوة. وظلّ يفعل ذلك ليلة بعد ليلة، ضاحكاً في قرارة نفسه وهو يرى جنّيات السماء يسقطن في الهواء، بينما يرفع سكان الأرض نظرهم إلى الأعلى متعجبين منهم ومطلقين عليهم اسم «الشهب». وكان عدد كبير من سكان النجوم يسقطون على الأرض بهذه الطريقة بسبب

الحيلة التي يقوم بها الرجل العنكبوت، ولا يعود بمقدورهم العودة إلى بلاد السماء لأن أطرافهم تُكسر، أو تُشوَّه وجوههم، لأن وجوه وأشكال جميع سكان بلاد السماء يجب أن تكون جميلة. لكن حيل الرجل العنكبوت لم تجده نفعاً، فلم يطردوه لأنهم ظلوا بحاجة إلى شباكه، فقرّر أخيراً أن يهرب. وفي إحدى الليالي، عندما ذهب القمر والنجوم إلى عملهم، وعندما كانت الشمس نائمة، ودّع بلاد السماء وهبط إلى الأرض بواسطة أحد الخيوط التي صنعها والتي أخذ يغزلها وهو يهبط.

وفي بلاد الأرض تزوّج أربع زوجات مثلما قرّر، لأنه أرادهن أن يقمن بخدمته بينما يستريح. فقد خيّل إليه أنه عمل لفترة طويلة من الزمن. وسار كلّ شيء على ما يرام لفترة من الوقت، وعاش الرجل العنكبوت سعيداً في حياته الكسولة القانعة، ولم يعد يغزل أي خيط، ولا ينسج أي شبكة. ولم يكن الرجال على الأرض يعملون، بل كانت النساء هن اللاتي يكدحن. وأخيراً، غضب «غلوسكاب» حاكم الأرض في ذلك الحين غضباً شديداً بسبب كسل الرجال في هذه البقاع، فأرسل مجاعة إلى بلادهم ليعاقبهم على الذنوب التي اقترفوها، فتسللت المجاعة إلى الأرض وجمعت الذرة كلّها وأخذتها، ثمّ دعا جميع الحيوانات والطيور

وسمك البحر والنهر وأخذها معه. ولم يتبق شيء من الطعام على الأرض كلها، ولم يتبق سوى الماء، فأصاب الناس جوع شديد، وأخذوا يقتاتون على الماء لأيام عديدة. وكانوا أحياناً يشربون الماء بارداً، وفي أحيان أخرى يشربونه حاراً، وفي أحيان أخرى دافئاً، لكن في جميع الأحوال، كانت الأحوال سيئة للغاية. وسرعان ما ملّ الرجل العنكبوت من هذا الغذاء الغريب، لأن العيش على الماء وحده لم يكن دائماً يشبع جوعه، بل يملأ بطنه حتى تتضخم، من دون أن يمدّه بالشبع أو القوّة، لذلك قال: «لابدّ من أن يكون هناك طعام جيد في مكان ما في العالم. سأذهب وأبحث عنه».

في تلك الليلة، عندما غطّ العالم كله في النوم، أخذ كيساً كبيراً، وانسلّ بهدوء مبتعداً عن زوجاته الأربع، وراح يبحث عن الطعام. ولم يشأ أن يعرف أحد بوجهته؛ فسافر أياماً عديدة اقتات خلالها على الماء فقط، لكنّه لم يجد طعاماً، وظلّ الكيس على ظهره فارغاً. وفي أحد الأيام، رأى طيوراً على الأشجار، وعرف أنه اقترب من حدود أرض الجوع. في تلك الليلة في الغابة، عندما توقّف عند جدول ماء ليشرب، رأى وميض ضوء خفيف على مسافة منه عبر الأشجار، فأخذ يسرع باتجاه الضوء، فصادف رجلاً ذا حدبة كبيرة على كتفيه، وتكسو وجهه الندوب، وكان

هناك ضوء خفيف على ظهره عليه مظلة صغيرة يستطيع أن يغلقها ويفتحها كما يشاء. قال الرجل العنكبوت: «إني أبحث عن طعام. أرجوك قل لي أين أستطيع العثور عليه»، فقال الرجل ذو الحدبة: «هل تريده لقومك؟»، فقال الرجل العنكبوت: «لا، أريده لنفسي»، فضحك الرجل ذو الحدبة وقال: «إنك قريب من حدود أرض الوفرة، اتبعني وسأعطيك الطعام الذي تطلبه»، ثمّ أضاء الضوء على ظهره، وبدأت المظلة الصغيرة تفتح وتغلق حتى بدأ الضوء يومض، وانطلق بسرعة عبر الأشجار. تبع الرجل العنكبوت الضوء الذي كان يومض في الظلام، وكان عليه أن يغذّ الخطى ليلحق به فبدأ يلهث حتى كادت تنقطع أنفاسه. وأخيراً وصل الرجل ذو الحدبة إلى أحد البيوت. لكنه بدأ يضحك عندما رأى الرجل العنكبوت قادماً وهو يلهث بشدة، ببطنه السمينة المنتفخة. قدم له وجبة طعام جيدة وشعر الرجل العنكبوت بالتحسّن بعد أن صام عن الطعام طوال هذه المدة، ثمّ قال الرجل ذو الحدبة: «أأنت هو الرجل العنكبوت الذي كان ينسج الشباك في السماء، فقد كنت أقيم أنا أيضاً في بلاد النجوم، وذات ليلة مظلمة، بينما كنت أتسلّق عائداً من بلاد الأرض على سلّمك، حاملاً مصباحي على ظهريْ لأضيء الطريق، وعندما اقتربت من السماء، قُطعت خيوط الشبكة، فسقطت وارتطمت على

الأرض بقوة شديدة. ولهذا السبب برزت على ظهري حدبة كبيرة، وظهرت الندوب على وجهي، ولذلك لم أعد قادراً على العودة إلى بلاد النجوم، وبدأت أجوب الأرض في الليل مثل جنيّة الغابات كما كنت أفعل في الماضي، لأني لا أزال أمتلك قوّتي السابقة، ولا أزال أحمل مصباحي على ظهري. إنه ضوء النجوم من بلاد السماء. لن أعود إلى بلاد النجوم قطّ إلا بعد أن أنهي عملي على الأرض. لكن بالرغم من أنّك كنت قاسياً معي، فإني سأقدم لك الطعام». وتذكّر الرجل العنكبوت الليالي التي كان يقطع فيها خيوط السلّم، وضحك في قرارة نفسه عندما تذكّر جنّيات النجوم وهن يسقطن على الأرض محدثات دوياً هائلاً. لكن الرجل الذي يحمل الضوء كان يعرف أن فرصته للانتقام من الرجل العنكبوت قد حانت. ولم يتوقع هذا الأخير وقوع شرّ، بل أحسّ بالسعادة لأنه تمكن من الحصول على الطعام أخيراً.

ثمّ قال الرجل ذو الحدبة: «سأعطيك أربع قدور، لكن عليك ألا تفتحها إلا عندما تصل إلى البيت، وعندما تفتحها ستجدها مليئة بالطعام اللذيذ». ووضع الرجل العنكبوت القدور الأربع في كيسه وألقاه على كتفه وانطلق عائداً إلى بيته، سعيداً

بالنجاح الذي حققه. وبعد أن مشى مسافة طويلة، استخدم الرجل ذو الحدبة قوّته فأجاعه، لكنه سار أياماً عديدة من دون أن يفتح القدور، لأنه مع أنه كاد يموت جوعاً، كان يتمنّى أن يحدث كما قال له الرجل ذو الحدبة. وأخيراً، لم يعد يقوى على الانتظار، فوقف في مكان قريب من بيته، وأخرج القدور من الكيس وفتحها. ووجدها مليئة بالطعام اللذيذ فعلاً، وكان في إحدى القدور حساء لحم لذيذ، وفي الثانية خضراواتِ عديدة مسلوقة، وفي الثالثة خبز مصنوع من الذرة الهندية، وفي الأخيرة فاكهة ناضجة ريانة حلوة المذاق. أكل حتى امتلأت معدته، ثم غطّى القدور وأعادها إلى الكيس وخبأ الكيس بين الأشجار. ثمّ توجه إلى البيت. في تلك اللحظة، شعر بالشفقة على قومه وقرّر أن يدعو زعيم القبيلة وجميع القبائل إلى وليمة سيقيمها في مساء اليوم التالي لأن القدور ستكون ممتلئة، وستكون هناك كميات من الطعام تكفي الجميع. وقال في نفسه إنهم سيعتبرونه رجلاً مدهشاً إذا ما استطاع أن يقدم لهم جميعهم وجبة طعام لذيذة تشبعهم جيداً.

سرت زوجاته أشدّ السرور لعودته، وجلبن له على الفور الماء، الغذاء الوحيد المتوافر لديهن. لكنّه سخر منهن، ورمى

الماء في وجوههن وقال: «أيتها الحمقاوات، لا أريد ماء. إنه ليس الغذاء المناسب لرجل عظيم مثلي. لقد تناولت وجبة طعام لذيذة من حساء اللحم وخبز الذرة والخضراوات المسلوقة والفاكهة الناضجة الحلوة المذاق. أعرف أين يوجد الكثير من الطعام، لكن لا أحد غيري يعرف مكانه. يمكنني أن أجد الطعام عندما لا يستطيع أحد آخر أن يفعل ذلك، إنني رجل عظيم. هيا اذهبن وادعين زعيم القبيلة وجميع الناس إلى وليمة سأقيمها لهم ليلة غدّ. وليمة للأرض كلها لأن الطعام الذي لديّ يكفي الجميع». ودُهشت زوجاته عندما سمعن قصّته، وزادت فكرة وجبة الطعام الدسمة من جوعهن، لكنّهن انطلقن ودعون جميع أفراد القبيلة إلى الوليمة كما طلب منهن.

وفي الليلة التالية تجمّع الناس جميعهم من أجل الوليمة لأن خبرها شاع في الأرض كلها. لم يتناولوا الماء في ذلك اليوم، لأنهم كانوا يرغبون في تناول طعام لذيذ، وكانوا جائعين كثيراً مثل حيوانات البراري التي تبحث عن طعامها. كان الرجل العنكبوت في غاية السعادة لأن الناس أخذوا يمتدحونه، وأحضر كيس القدور مزهواً، وانتظر الناس جميعهم متلهفين

وجائعين. لكنه عندما كشف القدر الأولى، لم يكن فيها طعام، وكشف الثانية، ولم يكن فيها طعام، ثم كشف القدرين الأخيرتين، ولم يكن في أي منهما أي طعام. كانت جميعها فارغة، وكان في قعر كل قدر فتحة كبيرة.

لقد حدث كل شيء هكذا: فعندما أعطى الرجل ذو الحدبة، الجنيّ من أرض النجوم، القدور إلى الرجل العنكبوت، كان يعرف جيداً أنه لن ينفذ تعليماته وسيفتح القدور قبل أن يصل إلى بيته. وضحك في قرارة نفسه، لأنه عرف أنه سينتقم من حائك نسيج العنكبوت الذي ألحق به أذى شديداً. لذلك، عندما ترك الرجل العنكبوت القدور بين الأشجار، استخدم الرجل ذو الحدبة قوّته السحرية وأحدث ثقوباً في القدور، وأوقف سحر الطعام، واختفى الطعام بأكمله. وعندما رأى الناس القدور الفارغة ظنوا أنّه تعمد خداعهم. وكانت بقايا الطعام ورائحة الحساء والفاكهة لا تزال تنبعث من القدور، وخيّل إليهم أن الرجل العنكبوت قد تناول الطعام كلّه وحده. وهكذا، ومن شدة جوعهم وغضبهم وإحباطهم، انقضوا عليه وراحوا يوسعونه ضرباً، وألقوا به أرضاً، بينما اختبأ الرجل ذو الحدبة الذي يحمل المصباح على ظهره وراء الأشجار وراح يتفرج ويضحك مغتبطاً. ثمّ مزّق الناس

ذراعي الرجل العنكبوت حتى كتفيه، وساقيه حتى فخذيه، حتى أصبح لديه ثمانية أطراف بدلاً من أربعة. وخرج الرجل ذو الحدبة، الجنيّ من أرض النجوم، الذي يدعى «ذبابة النار» من وراء الأشجار، ووقف فوق الرجل العنكبوت الملقى على الأرض وقال له: «بسبب وحشيّتك تجاه شعب النجوم ستزحف دائماً على ثماني قوائم، وسيكون لديك بطن سمينة مكورة بسبب الماء الذي شربته، وستعيش أحياناً فوق سطح الماء، لكنّك لن تأكل إلا الذباب والحشرات، وستدور دائماً بشكل حلزوني نحو الأسفل، لا إلى الأعلى أبداً، وستحاول غالباً أن تعود إلى بلاد النجوم، لكنّك ستنزلق دائماً إلى الأسفل على خيط الغزل الذي غزلته». ثمّ أومضت «ذبابة النار» نورها وحلقت بعيداً، وهي تفتح وتغلق مظلة مصباحها وراحت ترفرف بجناحيها بين الأشجار. وحتى يومنا هذا، يعيش الرجل العنكبوت مثلما قال الرجل ذو الحدبة، نتيجة القسوة التي مارسها على جنّيات أرض النجوم في أيام زمان.

الفتى الذي يدعى «غليظ الذهن»

كان يعيش ثلاثة إخوة مع أمّهم الهندية العجوز في الغابة في مكان قريب من البحر، وكان أبوهم قد مات منذ أمد بعيد، ولم يكن يملك أشياء كثيرة في هذا العالم، وعاشت أرملته وأولاده في فقر مدقع. ولم يكن يوجد في المنطقة التي يعيشون فيها صيد وفير، فاعتادوا الذهاب إلى الغابة للحصول على قدر كاف من الطعام. وكان الابن الأصغر ضئيل الجسم هزيلاً، وأضعف من أخويه الآخرين، فكانا يذهبان إلى الغابة ليصطادا، ويتركانه وحيداً، على الرغم من رغبته الشديدة في أن يرافقهما. وكان عليه أن يقوم بجميع الأعمال المنزلية، فينهمك طوال اليوم في جمع الحطب من الغابة، ونقل الماء من الجدول. وحتى عندما يخرج أخواه في الربيع ليستخرجا النسغ من أشجار القيقب، فإنهما لا يسمحان له بمرافقتهما. وبسبب ارتكابه للأخطاء والحماقات طوال الوقت، نعته أخواه «غليظ الذهن». وكان جميع أقربائه يقولون إنه

فتى ساذج لأنه بطيء الحركة ويقوم بأشياء غريبة؛ وكانت أمّه الوحيدة التي تعامله بلطف، وتقول له باستمرار: «قد يسخرون منك ويسمونك غليظ الذهن، لكنّك ستثبت لهم أنك أعقل منهم جميعهم لأن جنيّة الغابات أخبرتني بذلك عندما أنجبتك».

وكان لدى زعيم القبيلة ابنة جميلة تقدم إلى خطبتها شبان كثيرون. لكن أباها رفضهم جميعاً وطردهم من باب بيته، قائلاً لهم: «لم تبلغ ابنتي سن الزواج بعد، وعندما يحين وقت زواجها، فلن تتزوّج إلا الرجل الذي يستطيع أن يجلب صيداً وفيراً». وقرّر ابنا المرأة العجوز أن يتقدم أحدهما لخطبة الفتاة، لذلك استعدا للخروج في رحلة صيد كبيرة في الغابة الشمالية، لأن فصل الخريف كان قد حلّ، وظهر قمر الصيد. ورغب الفتى الصغير بمرافقتهما لأنه لم يبتعد كثيراً عن البيت من قبل، وكان يريد أن يرى العالم. لذلك سمحت له أمّه أن يرافقهما، فغضب أخواه غضباً شديداً عندما علما بذلك وقالا: «إن غليظ الذهن لن يفيدنا في الصيد كثيراً، ولن يجلب لنا إلا الحظ العاثر، فهو ليس صيّاداً بل مجرد خادم في المطبخ، وعامل لا يصلح إلا لإيقاد الموقد». لكن أمّه أمرتهما بأن يلبيا رغبة الفتى

فاضطرا أن يطيعا أمرها. وهكذا انطلق الإخوة الثلاثة صوب بلاد الشمال، وراح الأخوان الكبيران يهمهمان ويتذمّران بصوت مرتفع لأن أخاهما الأحمق يرافقهما.

وتمكن الأخوان من قتل الكثير من الظبية والأرانب وثعالب الماء والقنادس، وعادا إلى البيت حاملين كميات كبيرة من اللحوم المجفّفة والجلود، وقالا: «لقد بدأنا نثبت مهارتنا وبراعتنا للزعيم، وإذا نجحنا كذلك في السنة التالية عندما يظهر قمر الصيد مرة أخرى، فإن أحدنا سيفوز بابنته عندما تبلغ سن الزواج». أما الفتى الصغير فلم يجلب من رحلته إلى بلاد الصيد إلا دودة أرض كبيرة بسمك إصبعه وبطول ذراعه. كانت أكبر دودة أرضية رآها في حياته. فاعتبرها أغرب ما رآه، وأكبر ما اكتشفه في حياته، وراح يراقبها كلّ يوم لذلك لم يعد لديه وقت ليخرج معهما إلى الصيد. وعندما أحضرها في صندوق إلى البيت، قال أخواه لأمّهما: «ألم نقل لك إنه غليظ الذهن؟ لقد أثبت أنه أحمق، فلم يصطد طوال هذه الأسابيع إلا دودة أرض سمينة»، وأخذا يشيعان ذلك في القرية، وبدأ جميع الناس يسخرون من الأبله علناً، إلى أن ذهبت عبارة «الصياد ذو الذهن الغليظ» مثلاً في الأرض كلها. لكن أمّ الفتى ابتسمت وقالت: «سيفاجئهم جميعهم».

واحتفظ الفتى بدودة الأرض في حظيرة صغيرة جداً خارج باب بيته. وفي أحد الأيام جاءت بطّة كبيرة تتهادى في مشيتها، ومدّت منقارها في سياج الحظيرة الصغيرة والتهمت الدودة بسرعة. فغضب الفتى غضباً شديداً، وذهب إلى صاحب البطّة وقال له: «لقد أكلت بطّتك دودتي. إني أريد دودتي». وعرض عليه الرجل أن يدفع له الثمن الذي يطلبه، لكن الفتى قال: «لا أريد أي مال منك. أريد دودتي». فقال الرجل: «كيف أعطيك دودتك بعد أن أكلتها بطّتي؟ لقد رحلت إلى الأبد». فقال الفتى: «إنها لم ترحل. بل لا تزال في بطن البطّة، لذلك يجب أن آخذ البطّة». ولتفادي مشكلات أخرى، قدم الرجل البطّة إلى الفتى الغليظ الذهن، لأنه قال لنفسه: «ما جدوى الجدال مع فتى أحمق».

أخذ الفتى البطّة إلى البيت ووضعها في الحظيرة الصغيرة بالقرب من بيته، ووضع حولها سياج منخفض، وربط ثقلاً كبيراً بقدم البطّة لكي لا تطير. غمرته السعادة مرة أخرى لأنه قال لنفسه: «لقد استعدت الآن دودتي والبطّة». وفي أحد الأيام، جاء ثعلب يبحث عن الطعام، ورأى البطّة السمينة مقيدة من قدمها في الحظيرة الصغيرة، فقال: «يا لحظّي الرائع! ها هنا وجبة

طعام ممتازة»، وبلمح البصر قفز فوق السياج. عقعقت البطّة وأحدثت جلبة كبيرة، لكنّها سرعان ما سكتت، لأن الثعلب كان قد التهمها عندما وصل الفتى الذي خرج يجري من البيت بعد أن سمع صوت البطة. كان الثعلب يتلمظ بشفتيه عندما أنهى وجبة طعام لذيذة، ولم يتمكن من الهرب بسرعة، فأخذ الفتى يضربه بهراوة غليظة، وسرعان ما قتله وألقى بجثته في الباحة خلف البيت، وقال لنفسه: «هذا ليس سيئاً على الإطلاق. الآن أصبحت أملك الدودة والبطّة والثعلب».

في تلك الليلة، جاء ذئب هرم إلى الغابة يبحث عن طعام. كان جائعاً جداً، وفي ضوء القمر المضيء، رأى الثعلب الميت الملقى في الباحة، فانقض عليه والتهمه بشراهة شديدة حتى لم يبق منه أثر. لكن الفتى رآه قبل أن يتمكن من الهرب، فانقض عليه خلسة، وقتله بضربة من فأسه. وقال لنفسه: «لابد من أنني محظوظ جداً لأني أصبحت أمتلك الدودة والبطّة والثعلب والذئب»، وفي اليوم التالي، عندما أخبر أخواه بحظّه السعيد ومهارته العظيمة، سخرا منه بصوت مرتفع وقالا له: «سيجلب لك الذئب الميت حظاً سيئاً. وبعد يومين ستنبعث منه رائحة كريهة، ويتعين علينا أن ندفنه في مكان عميق. إنك حقاً أحمق كبير». فكّر الفتى

طويلاً بما قالاه، وقال لنفسه: «ربما كانا على حقّ. فلن يدوم الذئب الميت طويلاً. سأحصل على جلده».

وهكذا سلخ الذئب وجفّف جلده وصنع منه طبلاً، لأن الطبل من الآلات الموسيقية القليلة عند الهنود في ذلك الزمن القديم، وكانوا يقرعونه بصوت مرتفع جداً في جميع رقصاتهم ومهرجاناتهم. وأخذ الفتى يقرع الطبل كلّ مساء، محدثاً جلبة كبيرة، فخوراً جداً لأنه يملك الطبل الوحيد في القرية كلها. وذات يوم أرسل الزعيم في طلبه وقال له: «أريد أن أستعير طبلك هذا المساء. إذ سأعقد اجتماعاً ضخماً سأعلن فيه للأرض كلها أن ابنتي بلغت سن الزواج، وأنه باستطاعة الخاطبين التقدم لطلب يدها للزواج. وبما أننا لا نملك آلات موسيقية، فإنني أريد أن أستعير الطبل خاصتك وسأقوم أنا نفسي بالقرع عليه أثناء الرقص»، وهكذا أحضر غليظ الذهن طبله إلى بيت الزعيم، لكنّه لم يكن مسروراً لأنه لم يُدع إلى الاحتفال، بينما كان أخواه من بين الضيوف المكرّمين. وقال للزعيم: «احرص جيداً على طبلي. أرجو ألا تمزّق جلدته لأنني لا أستطيع أن أحصل على طبل آخر مثله. فقد ساهمت في صنعه كل من دودتي وبطّتي وثعلبي وذئبي».

وفي اليوم التالي ذهب ليحضر طبله، لكن الزعيم كان قد قرع الطبل بقوة فمزّقه ولم يعد يصدر صوتاً، ولم يعد بالوسع إصلاحه، فعرض أن يدفع للفتى مبلغاً كبيراً من المال ثمناً للطبل، لكن الفتى قال: «لا أريد مالك. أريد طبلي. أعد لي طبلي، لأن الدودة والبطّة والثعلب والذئب كلّهم فيه». فقال الزعيم: «كيف يمكنني أن أعيد لك طبلك بعد أن تمزق؟ لقد ولّى إلى الأبد. سأعوضك عنه بأيّ شيء تريده. وبما أن السعر الذي عرضته عليك لم يعجبك، يمكنك أن تطلب ما تريد». فقال الفتى لنفسه: «ها قد حانت فرصتي. سأفاجئ أخويّ الآن»، فقال: «بما أنك لا تستطيع أن تعيد لي طبلي، فإني سأتزوج ابنتك لقاء ذلك». ارتبك الزعيم وشعر بحيرة كبيرة، لكنّ كان عليه أن يفي بوعده، وهكذا قدم الزعيم ابنته للفتى غليظ الذهن، وتزوّجا وجلبت له الفتاة حظاً سعيداً، وعاشا حياة سعيدة جداً. وذُهل أخواه واستشاطا غضباً لأنهما أخفقا في مسعيهما، لكن أمّه قالت: «لقد قلت لكما إنه يتمتع بحكمة أكثر منكما وإنه سيتغلب عليكما بذكائه مع أنكما تسميانه غليظ الذهن وتصفانه بالأحمق والغبيّ، لأن جنيّة الغابة أخبرتني بذلك عندما أنجبته».

الأرنب والزعيم الهندي

في قديم الزمان عاش زعيم هندي مع قومه في مكان بعيد في الغابات الكندية. وكانت الحياة جيدة والطعام وفير، وكان جميع الناس يعيشون في سعادة وهناء. وفي أحد الأيام، جاء عملاق شرّير وزوجته الساحرة العجوز إلى الأرض من بلاد بعيدة خلف البراري وأخذا يحدثان جلبة كبيرة. والتهما كلّ ما تقع أيديهما عليه، وبعد فترة قصيرة، لم يعد يتوافر في طول البلاد وعرضها الكثير من الغذاء؛ وفي أحيان كثيرة، كانا يحملان الأطفال الصغار إلى مخبئهما ويلتهمانهم حتى لا يبقى منهم أثر. وأقاما في كهف خفي في مكان بعيد من الغابة. وكانا ينامان طوال النهار، ويخرجان في الليل للبحث عن غنيمة. وساور الزعيم قلق شديد، وحاول بشتى السبل العثور على مخبئهما بواسطة رجاله، لكن جميع جهودهم باءت بالفشل، لأن العملاق وزوجته الساحرة العجوز كانا يختفيان ويصبحان غير مرئيين بقوّتهما السحرية ثم يخرجان ويسيران بين البشر. واستدعى الزعيم جميع رجاله

المحاربين إلى اجتماع، وقال لهم: «من يستطيع أن يخلصنّا من هذه الآفة؟ من يستطيع أن يقتل العملاق؟». لكن أحداً منهم لم يجبه، وعندما رأى أن كمية الطعام المتوافرة لدى قومه قد بدأت تتناقص شيئاً فشيئاً، وبدأ الأطفال الصغار في قبيلته يختفون، تملكته حيرة شديدة ولم يعد يعرف ماذا يفعل.

وفي ليلة مقمرة، كان الأرنب كدأبه يجوب أنحاء الغابة يبحث عن أحد يمكنه أن يسخر منه لأنه كان مولعاً بالمزاح. وفجأة صادف العملاق وزوجته الساحرة العجوز واقفين بالقرب من فجوة في طرف جبل واطئ. فلبث واقفاً يراقبهما لفترة طويلة من تحت ظلّ شجرة ضخمة، ورآهما أخيراً يدخلان في فجوة كبيرة على سفح الجبل، وهكذا عرف بالصدفة مكان الكهف الذي يقيم فيه العملاق وغمرته سعادة كبيرة لهذا الاكتشاف، لكنه كتم السرّ في نفسه، وقال لنفسه: «ها قد سنحت لي فرصة جيدة لكي أصبح مشهوراً. سأقتل العملاق بخدعة ماكرة، وعندها سيعتبرونني محارباً عظيماً، أعظم محارب على وجه الأرض كلها، لأن رجال الزعيم كلهم لم يعثروا على العملاقين».

وهكذا انطلق إلى الزعيم وقال له: «أيها الزعيم، إني أعرف مكان العملاقين وأقسم لك بأني سأقتلهما. فأنا الذي يستطيع أن يخلصك من هاتين الآفتين»، فقال الزعيم بدهشة كبيرة: «أنت! لا يستطيع أمثالك إلحاق أدنى أذى بهذين العملاقين، بل إنهما سيلتهمانك بلقمة واحدة»، وضحك عالياً ساخراً من الأرنب. ثم استدعى رجاله المحاربين وقال: «انظروا إلى هذا المقاتل الشجاع أمامنا! هذا الأرنب الصغير يقول إنه يستطيع أن يفعل ما فشلنا في عمله. إنه يقسم بأنّه سيقتل العملاقين، مع أنه لا يستطيع إلا أن يقتل فأراً»، وانفجر الجميع في ضحك مجلجل ساخرين من غرور الأرنب.

جرحت سخرية الزعيم وضحكات المحاربين الفظة كبرياء الأرنب، إلا أن ذلك زاده تصميماً على المضي في قتل العملاقين اللصين. وهكذا ذهب إلى امرأة عجوز تعيش في مكان قريب وقال لها: «أعطني ثوباً قديماً بالياً، وشالاً قديماً خشناً، ونظارتك الملوّنة، وقبعة عليها ريشة». تساءلت العجوز عن الخدعة التي ينوي القيام بها، لكنّها أعطته كلّ ما طلبه. فارتدى الثوب القديم الرثّ ووضع القبعة المهترئة التي تعلوها ريشة حمراء، ولفّ الشال القديم حول وجهه، ووضع نظارات المرأة الملوّنة

على عينيه وحمل عصا مقوسة. وهكذا انطلق قبيل المساء إلى بيت العملاقين. وعندما وصل إلى الكهف، لبث واقفاً وراح ينتظرهما متكئاً على عصاه المقوسة، ولما بدأ الليل يقترب، عرف أن العملاقين سيخرجان بعد قليل في جولتهما ليسرقا وينهبا.

وعندما خيّم الظلام باستثناء ضوء القمر، خرجت زوجة العملاق الساحرة العجوز من الكهف. عندما رأت الأرنب في الضوء الخافت قالت له بفظاظة وخشونة: «من أنت، ولماذا تقف هناك في الظّل؟»، فقال الأرنب: «يا ابنة أختي العزيزة، لقد عثرت عليك أخيراً، فأنا خالتك العجوز المسكينة. كنت أظن أني ضللت طريقي. لقد جئت من وطنك في البلاد البعيدة لأراك. كانت رحلتي طويلة وشاقة، فتصلّبت ساقاي، وأصبح ظهري يؤلمني، وأنا جائعة ومرهقة»، واقترب ببطء من المرأة، وهو يعرج في مشيته متكئاً على عصاه المقوسة. خُدعت المرأة العملاقة، وألقت بذراعيها حول الأرنب وقبّلته، ولم تشعر بشعره أو بشفته المشقوقة بسبب الشال القديم الذي يلفّه حول وجهه. ثم قال الأرنب: «إن فكي يؤلمني لأني كنت أنام في العراء، ولهذا السبب ألفّ الشال على وجهي».

قالت الساحرة: «ادخلي وارتاحي، وستتحسن صحتك بسرعة».

«يجب أن تقوديني إلى الداخل»، قال الأرنب، ولم يشأ أن ينزع الشال عنه «لأن بصري ضعيف ولا أرى جيداً».

وهكذا قادت الأرنب إلى الكهف الدافئ المعتم بحيث لم ير أحدهما الآخر، ونادت زوجها وقالت: «لقد أتت خالتي العجوز التي قطعت كل تلك المسافة من البلاد البعيدة وراء البراري». وعامله العملاق بلطف ظناً منه أنه أحد أقارب زوجته، لأنه لم يره بوضوح، وأرياه الفراش الذي سيرقد عليه.

ثمّ أعطت المرأة الأرنب قطعة كبيرة من اللحم المجفّف ليأكلها، لكنه قال: «لا أستطيع أن أكلها لأنني عجوز وفقدت جميع أسناني. أعطني فأساً لأقطع بها اللحم إلى قطع صغيرة». فجلبت له المرأة فأساً حادّاً وقطّع اللحم إلى قطع صغيرة وأكلها كلها. ثم قال: «سأحتفظ بالفأس لأني سأكون بحاجة إليه في جميع وجبات طعامي»، ووضعه إلى جانب سريره. وقال العملاق: «سنمضي لزيارة بعض الأصدقاء، لكنّنا سنعود قبل منتصف الليل». لكن قبل أن يذهبا قال الأرنب للمرأة: «أرجو أن يكون نوم زوجك عميقاً، لأني أسعل بشدة، وفي بعض الأحيان

أئن وأنوح بسبب الألم في وجهي ورأسي ولا أريد أن أزعجه»، فأجابت العملاقة العجوز: «إنه ينام نوماً عميقاً. وعندما ننام نشخر كلانا بصوت مرتفع، وعندما تسمعنا نشخر أسعل كما تشاء، لأنك تعرف عندئذ أننا نغط في سبات عميق»، ثمّ خرج العملاق وزوجته الساحرة.

وعندما عادا إلى الكهف، تظاهر الأرنب بأنه يغط في النوم. وكانا قد أحضرا معهما طعاماً كثيراً خبآه في مكان سري بجانب الكهف. وراح الأرنب يراقبهما من خلال ثقوب الشال القديم الملتف حول رأسه. وسرعان ما أويا إلى فراشهما، لأن النعاس تملكهما بعد أن تناولا وجبة دسمة. وعندما سمع الأرنب صوت شخيرهما المرتفع الذي يشبه صوت هدير شلال ضخم «تشرر.. تشرر..»، نهض بهدوء شديد، وزحف مقترباً من سريرهما. وبضربتين من فأسه، قتل العملاق وزوجته، الواحد تلو الآخر. ثمّ هرب بأسرع ما بوسعه، حاملاً معه ثيابه القديمة الرثة وقبعته وشاله، لأنه فكّر أنه قد يحتاج إليها مرة أخرى.

وفي الصباح توّجه إلى بيت الزعيم وأخبره بما فعل، فضحك الزعيم ساخراً ولم يصدقه إلا عندما قاده الأرنب إلى الكهف وأراه العملاقين المقتولين باردين ومتصلّبين في فراشهما. ثم حمل

رجال الزعيم كمية كبيرة من الطعام كان العملاقان يخبآنها في مكان سري ونقلوها إلى القرية. لكن الزعيم ورجاله المحاربين، ورغم سرورهم لأنهم تخلصوا من السارقين، شعروا بالغضب الشديد لأن الأرنب الذي سخروا منه، هو الذي فعل ما أخفقوا هم في فعله، وتملكتهم غيرة شديدة من قوّة الأرنب.

وبعد ذلك بأيام، دعا الزعيم جميع الطيور والحيوانات إلى اجتماع، وقال لهم: «الآن، وبعد أن قُتل العملاقان اللذان كانا يسرقان طعامنا، وبما أن الغذاء لن ينقص في بلدي ثانية، سأطلب من كلّ حيوان وطير أن يختار نوع الغذاء الذي يحبّ أن يقتات عليه إذا استطاع الحصول عليه، وسيجده إذا بحث عنه، ودعاهم لاختيار ما يريدون، فقالت الطيور: «الحبوب والبذور والديدان»، وقال السنجاب: «الجوز»، وقال الثعلب: «الدجاج»، وقالت القطّة: «الحليب»، وقال الكلب: «اللحم والعظام»، وقال ابن عرس: «البيض»، وقال الذئب: «الحملان»، وقال الدبّ: «السمك من البحر المجمّد»، وهكذا إلى أن استدعيت جميع الحيوانات وقالت ما تريد أن يكون غذاء لها، ثم قال الزعيم: «سيكون لكم ما اخترتم». لكن الزعيم تقصد ألا يستدعي إلى الاجتماع الأرنب المسكين الذي كان غائباً في رحلة طويلة،

وعندما عاد غضب غضباً شديداً لدى سماعه بما حدث، لأنه لم يتبق له أن يختار سوى ما تبقى من الغذاء في العالم. لذلك مضى إلى الزعيم وقال له غاضباً: «هل هذا هو جزائي لأنني خلّصت أرضك من العملاقين. لكنه دأبك دائماً، تكافئ على الأعمال الصالحة بالشرّ».

استشاط الزعيم غضباً لصفاقة الأرنب، وقال له: «إنك تكذب ثانية». لكن الأرنب دعا الخروف والمعزاة والبطّة عندما كانوا مارين بالصدفة ليشهدوا ويقولوا الحقيقة، فتوقفوا ليستمعوا إلى الشجار. قال الخروف الهرم: «إن الأرنب صادق فيما يقول، فعندما كنت شاباً أعطيت الزعيم كمية كبيرة من الصوف ليصنع منها ثياباً يقي بها ظهره، وقد استغلني كثيراً، لكنني بعد أن كبرت في السن يريد أن يقتلني ويأكلني. هذا جزاء ما فعلت له»؛ ثم قالت المعزاة العجوز: «إن الأرنب يتحدث بحكمة وبإنصاف. فقد خدمت الزعيم في شبابي وقدمت له الحليب، أما الآن، وبعد أن كبرت في السن ولم يعد لدي حليب، بدأ يسمّنني ويهيئني للذبح. هذا هو جزائي»؛ وقالت البطّة العجوز: «إن ما يقوله الأرنب صحيح. ففي الماضي كنت أعطي الزعيم الكثير من البيض والبطّات الصغيرات، أما الآن، وبعد أن انقطع بيضي

فإنه سيطهيني بعد فترة قصيرة في قدر. هذه هي مكافأتي». لم يجب الزعيم على أي من هذه التهم، لأنه يعرف أنها صحيحة، وقال إنه سيفعل ما بوسعه من أجل الأرنب. لكن الأخير رفض أن يختار نوع الغذاء لأنه قال إن أفضل أنواع الغذاء قد ذهبت، وتجهم الأرنب وحزن وعاش لأشهر عديدة وحيداً.

وقرّر أخيراً أن ينتقم من الزعيم. وكعادته خطرت له خدعة ماكرة، فقد كان للزعيم دبّ هرم يحترمه كثيراً، لأن الدبّ كان يفعل حيلاً مدهشة كثيرة ويضحكه هو ورجاله المحاربين عندما يرقص لهم في مآدبهم واحتفالاتهم. وفي ذلك الزمن، كان للدبّ ذيل طويل كثيف يتباهى به كثيراً. وفي أحد الأيام، وبينما كان الأرنب جالساً على الجليد يصطاد السمك، جاء الدبّ الشتوي. وفي تلك الليلة، كان سيقام احتفال سيرقص فيه الدبّ أمام الزعيم، وكان في غاية البهجة. وسأل الأرنب: «من أين حصلت على هذه السمكات الجميلة كلها؟». لأنه يحب السمك كثيراً، فقال الأرنب: «لقد اصطدتها من تلك الفتحة في الجليد. إنها عملية في غاية السهولة. أنزل ذيلك في الفتحة، وسرعان ما سيمتلئ بأسماك كبيرة جميلة».

فعل الدبّ كما طلب منه الأرنب، وجلس على الجليد لفترة طويلة ينتظر فريسته. جلس طويلاً حتى تجمّدت الفتحة، لأنه الجو كان شديد البرودة، وتجمّد ذيل دبّ المسكين الغليظ الطويل داخل الفتحة. قال الأرنب: «الآن اقفز بسرعة، لأن أسماكاً كثيرة عالقة في ذيلك». قفز الدبّ بكلّ ما أوتي من قوّة، لكن ذيله علق بقوة في الجليد، وقُطع من جذره تقريباً. ضحك الأرنب مغتبطاً وهرب، وراح الدبّ المسكين يصرخ ألماً وخزياً، ولم يستطع أن يرقص في الاحتفال في تلك الليلة لأن عقب ذيله كان يؤلمه، وغضب الزعيم ورجاله المحاربين كثيراً من الأرنب لأنه ألحق الأذى بالحيوان الذي يحبونه والذي يرقص لهم. ومنذ ذلك الحين، أصبح للدبّ ذيل قصير غليظ يحاول حتى يومنا هذا أن يهزه على نحو واهن.

ثمّ توارى الأرنب عن عيون الزعيم ورجاله المحاربين بضعة أيام، ثمّ قرّر أن يجرّب حيلة أخرى. كان القندس الهرم كبير الحطّابين يعيش في بيت صغير مصنوع من القصب على ضفة الجدول، وكان منهمكاً في قطع الأشجار للزعيم، بسبب اقتراب فصل الربيع، وبسبب حاجة الناس إلى الحطب لبناء جسور فوق الأنهار. وفي أحد الأيام، ذهب الأرنب إلى القندس، وقال له:

«لقد بعثني الزعيم إليك لكي أرشدك إلى شجرة كبيرة يريدك أن تقطعها له في الحال». فمضى القندس معه. وعندما انهمك القندس في قطع الشجرة، ضربه الأرنب بقوة على رأسه بهراوة غليظة، آملاً أن يقتله ليثير غضب الزعيم ثانية. فهوى القندس المسكين أرضاً ولاذ الأرنب بالفرار. لكن القندس أصيب بالدوار فقط، وسرعان ما نهض وعاد إلى بيته يدمدم ويفرك رأسه ألماً. وبعد قليل، عاد الأرنب إلى الشجرة، ووجد أن القندس قد ذهب، فعرف أنّه لم يفلح في قتله. ثمّ ارتدى ثيابه الرثّة القديمة وشاله الخشن ونظاراته الملوّنة والقبعة التي تعلوها ريشة حمراء، وتوجه إلى بيت القندس القريب من الجدول، وهو يعرج في مشيته متكئاً على عكازه. وقال له: «لقد أرسلني الزعيم إليك لأدلك على شجرة ضخمة يريدك أن تقطعها له في الحال».

فقال القندس: «لقد حاولت أن أقطع من أجله شجرة كبيرة اليوم وكان يجب أن أنهيها لكنني ضُربت بهراوة وأصبت بالدوار»، فسأله الأرنب وهو يضحك في قرارة نفسه: «ومن ضربك؟». فأجاب القندس: «لقد ضربني الأرنب»، فقال الأرنب: «إنه قاطع طريق كبير وكذاب ولص»، فقال القندس: «نعم إنه كلّ ذلك»، وراح يفرك الورم على رأسه. وهكذا مضى القندس مع الأرنب. وبينما يسيران معاً سأله الأرنب: «كيف حدث أنك لا

تزال على قيد الحياة بعد تلك الضربة القاسية؟»، فقال القندس: «لقد ضربني الأرنب على رأسي، ولو أنه كان قد ضربني على قفا رقبتي لقتلني، حيث يكمن سرّ حياتي». وعندما انهمك القندس ثانية في قطع الشجرة، ضربه الأرنب ضربة قويّة على قفا رقبته فسقط القندس المسكين ميتاً. ثمّ قطع ذيله الذي كان أشبه بمبرد، ورحل سعيداً، لأنه عرف أن الزعيم سيغضب كثيراً عندما يكتشف ما حدث لحطّابه.

وعندما علم الزعيم أن القندس قد قُتل، استشاط غضباً لأنه لم يقو على تحمّل فقدان أفضل حطّاب لديه. واتهم الأرنب بأنه هو من فعل ذلك، لكنّه لم يكن متأكداً من صحة شكوكه. وظل الأرنب متوارياً عن أنظار الزعيم بضعة أسابيع. وفي أحد الأيام في أوائل الصيف شعر بجوع شديد، ورأى جميع الحيوانات الأخرى تملأ بطونها بطعامها المفضّل، فقرّر أن ينسى غضبه، وأن يطلب مساعدة الزعيم. وهكذا توجه إليه وقال بغطرسة: «أريدك أن تعطيني طعاماً خاصاً لي كما فعلت للحيوانات الأخرى. يجب أن تفعل ذلك على الفور وإلا آذيتك كثيراً». ثمّ تذكّر الزعيم ما فعله الأرنب بدبّه الراقص، وتذكر القندس الذي اتهمه بقتله من دون أن يكون متأكداً من ذلك، احمّر وجهه غضباً.

وأمسك بالأرنب من كعبيه وقال: «من الآن وصاعداً، ستطاردك الكلاب، ولن تشعر بالسلام عندما تكون قريبة منك. وستعيش الشطر الأكبر من حياتك على الطعام الذي ألقيه إليك». ثمّ أخذ يفتل الأرنب حول رأسه من قدميه، ورماه بقوة كبيرة، راجياً أن يقع في مستنقع أسود كبير قريب. وطار الأرنب المسكين في الهواء مسافة كبيرة، أبعد مما كان يأمل الزعيم، وسقط وارتطم بقوة في حقل من البرسيم زُرع على جانبيه الملفوف والخسّ. ومنذ ذلك الحين، أخذت الكلاب تطارد الأرنب على الدوام، وأصبح يقتات في معظم حياته على الملفوف والخسّ والبرسيم الذي يسرقه من حقول المزارعين في الليالي المقمرة.

القلب الكبير والاختبارات الثلاثة

في قديم الزمان، عاش في مكان قريب من البحر، فتى مع أبيه وأمّه، ولم يكن عنده إخوة أو أخوات. وكان أبوه صيّاداً عظيماً، وورث الفتى شيئاً من قوّته، لأنه كان ينجح دائماً في قتل الحيوانات التي يصطادها. قالت له أمّه: «سيصبح ابني رجلاً عظيماً ذات يوم، لأنه جاءتني رؤية في المنام قبل أن ألده وأعلمتني أن ابني سيحظى بشهرة عظيمة، ووضعت الجنّيات هداياها في مهده». وكان أبوه يستمع إلى مباهاتها ويقول: «إن الزمن كفيل بأن يثبت صحة ذلك. لكن إذا كان سيصبح رجلاً عظيماً، فإن أفعاله هي التي يجب أن تثبت ذلك، لا مباهاتك». وعندما كبر الفتى، أصبح وسيماً جداً وامتلك قوّة هائلة. قال أبوه: «لقد حان الوقت لينطلق بحثاً عن مصيره. فقد كنت في الغابة أعمل بنفسي عندما كنت في مثل عمره»، فقالت أمّه: «انتظر قليلاً ولا تكن نافد الصبر. فهو لا يزال صغيراً ولا يزال أمامه وقت كثير». وهكذا بقي الفتى في البيت فترة أطول من الزمن.

وصادف أن فتاة شابة ذات جمال باهر وبهاء رائع كانت تعيش في قرية بعيدة. وكان أبوها زعيماً عظيماً، لكنّه توفي قبل فترة قصيرة. وماتت أمّها أيضاً، فبقيت وحيدة في هذا العالم. إلا أن أبويها تركا لها أرضاً شاسعة، وقدراً كبيراً من الممتلكات، وعدداً من الخدم. وبسبب الثروة التي تمتلكها وروعة جمالها تقدم لخطبتها الكثير من الشبان. لكنها كانت صعبة الإرضاء لا يعجبها الرجال بسهولة، لذلك فرضت على كل من يطلب يدها للزواج أن يقوم بأعمال صعبة تُظهر مهاراتهم لتختبر مدى إخلاصهم وجدارتهم. وكانت تقوم على رعايتها وحراستها امرأة عجوز وعدد كبير من الخدم يبعدون عنها الشبان المزعجين والمتطفّلين.

وسرعان ما طبقت شهرة ثروة الفتاة وجمالها أرجاء الأرض، ووصلت إلى القرية القابعة على شاطئ البحر حيث يعيش الشابّ. وقال أبوه لنفسه: «لقد حانت فرصة جيدة لكي يثبت ابني جدارته»، فاستدعى الفتى وقال له: «لقد حان الوقت لتنطلق وتبحث عن مصيرك وثروتك في هذا العالم وتجد لك زوجة، لأن ربيع حياتك يمضي، وسرعان ما سيحّل صيف حياتك، وقبل أن تحسّ، سيأتي خريف حياتك، وسيصبح شتاؤك على الأبواب.

لذلك لا وقت أمامك لتضيعه سدى. هيا امض وابحث عن الفتاة الجميلة الثرية في القرية البعيدة، وحاول أن تفوز بها زوجة لك». وأعطته أمّه الهدايا التي وضعتها الجنّيات في مهده في اليوم الذي ولد فيه، وودّع أباه وأمه وانطلق في رحلته الطويلة. لم تكن تساوره المخاوف، لأنه كان مزهواً بوسامته وواثقاً من قوّته أيضاً.

وفي طريقه إلى القرية البعيدة، صادف يوماً رجلاً يرتدي ثوباً أرجوانياً يجلس إلى جانب تلّ صخري ويربط أحجاراً في قدميه. فبادره قائلاً: «مرحباً، لماذا تربط هذه الصخور الثقيلة في قدميك؟»، فأجاب الرجل: «أنا صيّاد، لكنني عندما أطارد أيّلاً فإني أركض بسرعة كبيرة، وسرعان ما أجد نفسي قد سبقته وأصبحت أمامه بدلاً من أن أكون خلفه، لذلك فإني أضع أوزاناً ثقيلة في قدمي كي أخفف من سرعتي». فقال الفتى: «حقاً إنك رجل رائع، لكنني وحدي وأحتاج إلى رفيق. فلنرتحل معاً». فسأله الرجل: «من أنت؟».

فقال الفتى: «أنا الفتى ذو القلب الكبير، وأستطيع أن أقوم بأعمال عظيمة، ويمكنني أن أكسب لك كنزاً عظيماً». وهكذا مضى معه العدّاء الأرجواني. وقبيل حلول المساء، وبعد أن اجتازا

مسافة كبيرة داخل البلاد، وصلا إلى بحيرة كبيرة. ووجدا بين الأشجار على حافّة البحيرة رجلاً بديناً ضخماً مستلقياً على بطنه يشرب الماء بسرعة كبيرة. أخذا يراقبانه لوهلة، لكنه ظل يشرب، وبدأت البحيرة تصغر وتصغر، لكنه ظل عطشاً. فراحا يضحكان من هذا المشهد الغريب، وعندما اقتربا منه، قال الفتى: «مرحباً! لماذا أنت ممدد هناك وتشرب ماء كثيراً؟». فأجاب الرجل البدين: «تمر أوقات لا أستطيع أن أحصل فيها على قدر كاف من الماء لأشربه. وعندما أشرب حتى تجفّ هذه البحيرة، فإني أظل عطشاً». وسأله الفتى: «من أنت؟». فأجابه الرجل البدين: «أنا من بلاد العطش العظيم». فقال ذو القلب الكبير: «حسناً، سنحتاج كلانا إلى رفيق ثالث. ويمكننا أن نقوم جميعنا بأعمال عظيمة، ونستطيع أن نحصل لك على كنز هائل»، وهكذا مضى الثلاثة معاً.

ولم يجتازوا مسافة طويلة حتى وصلوا إلى سهل شاسع رأوا فيه رجلاً يسير ورأسه مرفوع إلى الأعلى يحدق في السماء. وكان يتحرّك بسرعة ويبدو أنه يجد طريقه من دون أن يستخدم عينيه، لأنه كان دائم التحديق في السماء. قال له ذو القلب الكبير عندما تجاوزه الناظر في السماء وكاد أن يوقعه أرضاً: «مرحباً،

ما هذا الذي تنظر إليه بهذا الاهتمام الشديد؟». فقال الرجل: «لقد رميت سهماً إلى السماء وأنتظره حتى يسقط. لقد انطلق إلى مسافة بعيدة، ويحتاج إلى فترة من الوقت قبل أن يسقط»، فسأله الفتى: «من أنت؟»، فأجاب الناظر إلى السماء: «أنا رامي السهام البعيدة». فقال الفتى: «نحتاج نحن الثلاثة إلى رفيق رابع»، وأضاف: «يمكننا أن نقوم بأعمال جليلة، وأن نحصل على كنز عظيم. هيا تعال معنا». وهكذا مضى الأربعة معاً.

ولم يجتز الرجال الأربعة مسافة بعيدة في السهل حتى وصلوا إلى حافة غابة، وصادفوا رجلاً مستلقياً على الأرض يصغي باهتمام شديد. وعندما رأى الرجال الأربعة يقتربون منه، وضع إصبعه على شفتيه وأشار لهم بأن يصمتوا. بادره ذو القلب الكبير بصوت خافت: «مرحباً، ماذا تفعل هناك ولماذا تضع أذنك على الأرض؟». فأجاب: «إني أستمع إلى النباتات وهي تنمو في الغابة، فهناك زهرة جميلة أريد أن أعثر عليها، وأحاول أن أسمعها وهي تتنفس لكي أذهب إليها وأقطفها. أها.. إني أسمعها الآن». وما إن قال ذلك، حتى نهض عن الأرض. وسأله الفتى: «من أنت؟»، فقال الرجل: «أنا ذو الأذنين الحادتي السمع». فقال ذو القلب الكبير: «نحن الأربعة نحتاج إلى رفيق آخر، ونستطيع

أن نقوم جميعنا بأعمال جليلة، وأن نحصل لك على كنز عظيم. هيا تعال معنا». وهكذا مضى الرجال الأربعة والفتى معاً: ذو الأذنين الحادتي السمع، والعدّاء الأرجواني، والرامي إلى مسافة بعيدة، والرجل ذو العطش الشديد، والفتى ذو القلب الكبير. ثمّ أفضى ذو القلب الكبير للآخرين بخطته لكي يفوز بالفتاة الجميلة والغنية التي تعيش في القرية البعيدة. ووافقوا جميعهم على مساعدته برحابة صدر في مهمته الجسيمة.

وعندما وصلوا إلى القرية، اعترى الناس جميعهم شعور بالفضول عندما رأوا الغرباء الخمسة، وأُعجبوا بوسامة ذي القلب الكبير. لكنهم عندما سمعوا بأنه يريد أن يتزوج ابنة زعيم القبيلة السابق، هزّوا رؤوسهم أسفاً وقالوا: «لن يتحقق لك ذلك، فهي تفرض شروطاً قاسية على كلّ من يريد أن يتقدم للزواج منها. وكل من لا ينجح في الاختبارات التي تفرضها، كُتب عليه الموت. وقد حاول كثيرون قبلك لكنهم أخفقوا وماتوا». أما ذو القلب الكبير، فلم يساوره أي قلق، وتوّجه مع رفاقه الأربعة إلى بيت الفتاة، حيث قابلته العجوز التي ترعاها وتحرسها عند الباب وأعلن لها عن رغبته. فضحكت المرأة ساخرة عندما رأت روعة جماله، وقالت: «إنك تشبه الفتيات أكثر مما تشبه المحاربين.

إنك لا تستطيع أن تصمد أمام الاختبارات»، لكن الفتى أصرّ على الخضوع لتلك الاختبارات.

قالت العجوز: «إذا أخفقت فيها فإن مصيرك الموت»، فأجابها ذو القلب العظيم: «اتفقنا». ثمّ قالت له: «إذا كنت ترغب في أن تفوز بالفتاة، فعليك أن تزيح هذه الصخرة الضخمة أولاً من أمام نافذتها، فهي تمنع أشعة الشمس في الصباح من الدخول إلى غرفتها». وبعد أن أحضر ذو القلب الكبير هدايا الجنّيات التي كانت وضعتها في مهده لمساعدته، أسند كتفه على الصخرة الكبيرة التي تنتصب على علو يفوق ارتفاع البيت، وراح يدفعها بكلّ قوّته. وتدحرجت الصخرة إلى أسفل التلّ وأحدثت دوياً هائلاً عند ارتطامها بالأرض وتناثرت فوق الأرض إلى ملايين القطع الصغيرة، ولا تزال الحصى والأحجار الصغيرة التي تناثرت منها تُرى في كافة أرجاء العالم حتى يومنا هذا. وهكذا تسللت أشعة الشمس من النافذة، وعرفت العذراء أن الفتى الذي تقدم للزواج منها قد نجح في الاختبار الأول.

ثمّ جاء الاختبار الثاني. فقد جلبت العجوز وخدمها كميات كبيرة من الطعام والشراب وطلبت من الغرباء أن يتناولوها كلّها في وجبة واحدة. كانوا جائعين جداً، لأنهم لم يتناولوا شيئاً طوال

اليوم، وتناولوا الطعام بسهولة. لكن عندما رأى ذو القلب الكبير براميل الماء الضخمة، انتابه الخوف وقال: «أخشى أن أُهزم»، لكن الرجل ذا العطش العظيم قال: «ليس بهذه السرعة يا صديقي. توجد لديّ تعويذة المعدة المحترقة العظيمة، وأنا أشعر بالجفاف في داخلي، وكأن ناراً تشتعل في بطني. امنحني الفرصة لأشربها»، وبدأ يتنقل من برميل إلى آخر، وبسرعة البرق أجهز عليها جميعها وأفرغها، فحظي بإعجاب شديد من الناس.

لكن كان هناك اختبار آخر، إذ قالت العجوز لذي القلب الكبير: «يجب أن يركض أحد رفاقك في سباق»، وأحضرت رجلاً لم يُهزم قط في الجري. وسألته: «من تختار من العدائين؟ يجب أن يسابق هذا الرجل، وإذا فاز من أجلك، ربما أصبحت العذراء لك هي وكل ما تملكه من كنوز، لأن هذا هو الاختبار النهائي. أما إذا خسر السباق فسيكون مصيرك الموت». ودعا ذو القلب الكبير العدّاء الأرجواني وقال للعجوز هذا هو الرجل الذي اخترته. ثمّ فك الصخور من قدمي العدّاء، واستعدا لبدء السباق. كان مضمار السباق يمتد مسافة أميال عديدة عبر السهول حتى يغيب العداءان عن البصر، ثم يعودان إلى نقطة البداية. ظل العدّاءان يجريان جنباً إلى جنب إلى مسافة قليلة، وكانا يتحدثان بوّد وهما

يجريان. وعندما غابا عن عيون أهل القرية، قال عدّاء الفتاة: «لقد أصبحنا الآن خارج رؤية القرية الآن. فلنرتح قليلاً عند هذه الضفة التي يكسوها العشب، لأن اليوم شديد الحرارة». وافق العدّاء الأرجواني على ما اقترحه العّداء الآخر وتمددا كلاهما فوق العشب. كانت هذه خدعة قديمة يستخدمها عدّاء الفتاة الذي كان يفوز دائماً بالمكر والحيلة، لا بقوته وبسرعته. ولم تمض فترة طويلة وهما مستلقيان على العشب، حتى غطّ العدّاء الأرجواني في النوم تحت الشمس الحارة، كما كان يتمنى منافسه. وعندما تأكد هذا الأخير من أن منافسه نائم، أخذ يجري بأقصى ما يستطيع باتجاه القرية، وسرعان ما رأى الناس عدّاءهم يقترب من مسافة بعيدة في السهول، لكن لم تكن هناك دلالة تشير إلى وجود الغريب، وقالوا إن الفتى قد أخفق مثل جميع من سبقه.

شعر ذو القلب الكبير بحيرة شديدة، عندما لم ير العدّاء القرمزي ورأى عدّاء الفتاة يقترب، فقال: «ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ إني أخشى أن أُهزم». لكن ذا الأذنين الحادتي السمع ارتمى فوق شقّ في الأرض، وراح ينصت، ثم صاح قائلاً: «إن العدّاء الأرجـواني نائم. أسمع شخيره في السهول البعيدة»، وبإحساسه الحـادّ والدقيق للصوت، تمكّن من تحديد المكان

الذي يستلقي فيها العدّاء بدقة. «سأوقظه في الحال»، قال رامي السهام، ووضع سهماً في قوسه. ظنّ الناس أنه مجنون لأنهم لم يروا في حياتهم سهماً يُرمى إلى هذه المسافة البعيدة عن بصرهم. لكن رامي السهام لم ييأس، ورمى بسرعة سهماً من قوسه إلى البقعة التي أشار إليها ذو الأذنان الحادتا السمع. كان سهمه دقيقاً وأصاب العدّاء القرمزي في أنفه فأيقظه من نومه. لكنه عندما استوى واقفاً، وجد أن منافسه قد ذهب وعرف أنه قد خُدع. وبغضب شديد لأنه خُدع وبسبب الألم في أنفه، انطلق باتجاه القرية بسرعة الريح. وكان منافسه على وشك أن يصل إلى نهاية خط السباق، لكن العدّاء الأرجواني استخدم كلّ طاقته وقوّته، وتمكن من اللحاق به بسرعة، واجتازه عندما اقتربا من سارية الفوز، وفاز في السباق. وتعجب الناس كثيراً من هذه الأعمال العظيمة التي أظهرها الغرباء.

ثمّ قالت العجوز لذي القلب الكبير: «لقد فزت بالفتاة زوجة لك، لأنك الفتى الوحيد الذي نجح في هذه الاختبارات». وهكذا تزوّجا بعد أن أقيمت احتفالات عظيمة. وأغدق ذو القلب الكبير العطاء على رفاقه، ووعدوه بأن يقدموا له المساعدة دائماً عندما يكون بحاجة إليها. ثمّ عاد مع زوجته وخدمها وأملاكها

العظيمة إلى قريته على شاطئ البحر. كان أبواه سعيدين لرؤيته ثانية، وعندما سمعا عن نجاحه، قالت أمّه: «لقد قلت لك إنه سيحقق شهرة كبيرة بسبب الهدايا التي وضعتها الجنّيات على مهده عندما أنجبته»، وعاشوا جميعهم بسعادة كبيرة.

الفتى ذو شفق السماء الأحمر

عاش في قديم الزمان، على شواطئ المياه العظيمة في الغرب شاب وزوجته التي تصغره في السن، ولم يكن لهما أطفال، وكانا يعيشان وحدهما منعزلين عن الآخرين في جزيرة لا تبعد كثيراً عن الشاطئ. واعتاد الرجل أن يمضي وقته في صيد السمك في عمق المحيط، أو في صيد سمك السلمون بالرمح في الأنهار البعيدة. وكان في معظم الأحيان، يغيب أياماً عديدة، وتمكث زوجته وحيدة طوال فترة غيابه. ولم تكن تخاف لأنها تمتلك روحاً شجاعة، لكنّها كانت تشعر بالكآبة في المساء دون شيء تفعله سوى أن تنظر إلى السماء الرمادية، وتنصت إلى أصوات الأمواج المتلاطمة على الشاطئ. لذلك كانت تقول لنفسها يوماً بعد يوم: «كم أتمنّى أن أنجب أطفالاً، ليسلوني عندما أكون وحيدة».

وذات غروب، حين مكثت وحيدة بعد ذهاب زوجها للصيد في عمق المحيط، جلست على الشاطئ الرملي وراحت تحدق

في الماء. كانت السماء في الغرب رمادية باهتة، كما هي دائماً في تلك البلاد، وقالت المرأة لنفسها: «كم أتمنّى أن يكون لي أطفال يملأون حياتي». وإذا بها ترى طائر «رفراف» يغط منقاره هو وصغاره في الماء لالتقاط سمك البلم الصغير على مقربة منها. فقالت المرأة: «أيها الطير البحري ذو الطوق الأبيض، كم أتمنّى أن يكون لي أطفال مثلك»، فقال الطائر: «انظري داخل صدفة البحر، انظري داخل صدفة البحر»، وحلّق مبتعداً. وفي مساء اليوم التالي، جلست المرأة ثانية على الشاطئ تنظر إلى السماء الرمادية الباهتة باتجاه الغرب. وبالقرب منها رأت نورساً أبيض يركب الموج وسط أطفاله الصغار، فقالت المرأة: «أيها الطير البحري الأبيض، كم أتمنّى أن يكون لي أطفال مثلك»، فقال النورس: «انظري داخل صدفة البحر، انظري داخل صدفة البحر»، وحلّق مبتعداً.

تساءلت المرأة كثيراً عن مغزى كلمات طائري الرفراف والنورس. وعندما جلست هناك تفكّر، سمعت بكاء غريباً ينبعث من كثبان الرمل خلفها. فاقتربت من الصوت، ووجدت أن الصوت ينبعث من داخل صدفة بحرية كبيرة على الرمل. التقطت الصدفة ووجدت في داخلها صبياً صغيراً جداً يبكي

بأعلى صوته. تملكتها السعادة لهذا الاكتشاف العظيم، وحملت الطفل إلى بيتها وأخذت ترعاه وتعتني به. وعندما عاد زوجها إلى البيت من الصيد، سرّ كثيراً أيضاً عندما رأى الطفل، لأنه عرف أنهما لن يصبحا وحيدين بعد الآن.

كبر الطفل بسرعة، وسرعان ما صار قادراً على المشي والانتقال حيثما شاء. وفي أحد الأيام، كانت المرأة تضع سواراً نحاسياً على ذراعها، فقال لها الطفل: «أريد قوساً مصنوعاً من النحاس الذي تضعينه حول ذراعك». ولكي تدخل السرور إلى نفسه، صنعت له قوساً صغيراً وسهمين صغيرين من سوارها، وانطلق على الفور إلى الصيد. ويوماً إثر يوم، بدأ يعود إلى البيت يحمل صيده. وأصبح يجلب إلى البيت إوزات وبطات وطيور بحرية صغيرة، يعطيها لأمّه لتعد الطعام منها. وعندما كبر قليلاً، لاحظ الرجل وزوجته أنه بدأت تظهر على وجهه مسحة ذهبية اللون أكثر تألقاً من لون قوسه النحاسي. وحيثما كان يذهب، ينبعث منه ضوء غريب، وعندما يجلس على الشاطئ وينظر نحو الغرب، يصفو الجوّ وتظهر ومضات لامعة غريبة فوق سطح الماء، فدُهش والداه وراحا يتساءلان عن هذه القوّة غير العادية التي يمتلكها، لكن الفتى لم يكن يرغب في التحدّث في هذا الأمر، ويلوذ بالصمت دائماً.

وفي أحد الأيـام، هبّت ريح شديدة فوق المياه العظيمة، ولم يتمكن الرجل من الخروج إلى الصيد بسبب هياج البحر واضطرابه، فمكث أياماً عدة على الشاطئ لأن المحيط الساكن عادة، أصبح في حالة شديدة من الغضب، والأمـواج تتلاطم بشدة على الشاطئ. وبعد فترة قليلة، بدأ الناس يحتاجون إلى السمك لتناول طعامهم. قال الفتى: «سأخرج معك لأني قادر على التغلب على روح العاصفة». لم يشأ الرجل أن يأخذه الفتى معه، لكنه أذعن أخيراً إلى توسلاته، وانطلقا معاً لصيد السمك في البحر المتلاطم الأمواج. ولم يتجاوز الرجل والفتى مسافة بعيدة، حتى التقيا روح العاصفة القادمة بجنون من الجهة الجنوبية الغربية حيث تقيم الرياح العظيمة. وبذلت روح العاصفة محاولات كثيرة لكي تقلب مركبهما، لكن لم يكن لها سلطان عليهما، لأن الفتى كان يوجّه القارب الضعيف في الماء، فيصبح البحر من حولهما هادئاً وساكناً. ثمّ أخذت روح العاصفة تنادي ابنة أخيها «الغيمة السوداء» لتساعدها، وبعيداً في الجهة الجنوبية الشرقية، رأياها تهرع مسرعة لمساعدة عمّتها، لكن الفتى قال للرجل: «لا تخف لأنني أستطيع أن أتفوق عليها»، وهكذا التقيا. لكن ما إن رأت الغيمة السوداء الفتى، حتى اختفت بسرعة. ثمّ نادت روح العاصفة سديم البحر ليأتي ويغطي سطح

الماء، لأنها ظنّت أن القارب سيضل طريقه إذا تمكن سديم البحر من حجب الأرض عن الرجل والفتى. وعندما رأى الرجل سديم البحر آتياً مثل بخار رمادي فوق الماء، اعتراه الخوف لأنه كان يخشاه أكثر من جميع أعدائه الآخرين في المحيط. لكن الفتى قال: «لا يستطيع أن يسبب لك الأذى ما دمت معك». وكما كان متوقعاً، عندما رأى سديم البحر الفتى جالساً في القارب مبتسماً، اختفى بالسرعة التي جاء فيها. وهربت روح العاصفة غاضبة إلى أصقاع أخرى، ولم تعد هناك مخاطر في ذلك اليوم في البحر.

وسرعان ما وصل الفتى والرجل إلى منطقة صيد السمك بأمان. وعلّم الفتى أباه بالتبني أغنية سحرية تمكّنه من إغواء السمك وجذبه إلى شباكه. وقبل أن يحلّ المساء، كان القارب قد امتلأ بالسمك السمين، وانطلقا عائدين إلى بيتهما. قال الرجل: «حدثني عن سرّ قوّتك»، لكن الفتى قال: «لم يحن أوان ذلك بعد». وفي اليوم التالي قتل الفتى عدداً كبيراً من الطيور، وذبحها وسلخها جميعها وجفّف جلودها. ثمّ ارتدى جلد طائر الزقزاق وارتفع في الهواء وحلّق فوق البحر. وكان البحر تحته رمادياً مثل جناحيه. ثمّ هبط وارتدى جلد طائر أبو زريق وعاد وحلّق

ثانية، فتغيّر لون البحر الذي يطير فوقه على الفور، وأصبح أزرق مثل لون جناحيه، وعندما عاد إلى الشاطئ، وضع جلد طائر أبي حناء الذهبي الصدر مثل لون وجهه، ثمّ حلّق عالياً، وعلى الفور عكست الأمواج تحته لوناً يشبه النار، وظهرت ومضات لامعة من الضوء فوق المحيط، وأضحت السماء في الغرب حمراء ذهبية. وعاد الفتى وطار إلى الشاطئ، وقال لأبيه وأمه بالتبني: «لقد حان الوقت لأن أغادركما، فأنا من سلالة الشمس، وقد اختبرت قوّتي البارحة ونجحت، لذلك يجب أن أذهب الآن ولن أراكما ثانية، لكني سأظهر لكما في المساء في غالب الأحيان في سماء الشفق في الغرب. وعندما تنظر السماء والبحر إلى المساء الذي يشبه لون وجهي، ستعرفان عندها أنه لن تهب ريح أو عاصفة، وأن الطقس في الغد سيكون جميلاً ومعتدلاً. ومع أنني سأغادركما، فإني سأترك لكما قوّة غريبة، وعندما تحتاجان إليّ، أعلماني برغباتكما وأرسلا لي أضحيات بيضاء لكي أراها من بيتي البعيد في الغرب».

ثمّ أعطى أمّه بالتبني عباءة رائعة، وودّع أبويه، وطار بعيداً باتجاه الغرب، وغادرهما وهما حزينان. لكن المرأة لا تزال تحتفظ بجزء من القوّة التي قدمها لها، فعندما تجلس في شقّ

في الكثبان في الجزيرة وترخي عباءتها الرائعة، تسرع الريح من الأرض، ويضطرب البحر بسبب العاصفة، وكلما حلّت عباءتها أكثر، اشتدت العاصفة. وفي أواخر الخريف، عندما يأتي السديم البارد من البحر، وتزداد الأمسيات برودة، وتكون السماء رمادية باهتة، تتذكّر وعد الفتى. وتقدّم له أعطية من الريش الأبيض الصغير الذي تقتلعه من صدور الطيور، وترميه في الهواء، فتبدو مثل رقائق الثلج، وتتصاعد بكثافة في الرياح. وتسرع باتجاه الغرب لتخبر الفتى أن العالم رمادي وكئيب وأنها في شوق لرؤية وجهه الذهبي. ثمّ يظهر لشعب الأرض، ويأتي في المساء، ويتسكع بعد غروب الشمس إلى أن يصبح لون الشفق في السماء أحمر، ويتلألأ المحيط في الغرب بوميض من الضوء الذهبي، وعندها يعرف الناس أنه لن تكون هناك ريح، وأن الطقس سيكون جميلاً ومعتدلاً في الغدّ، كما وعدهم منذ أمد بعيد.

كيف جلب الغراب النار إلى الهنود

في قديم الزمان، عندما كان العالم لا يزال فتياً، عاش الغراب والنورس الأبيض معاً في كندا، في البلاد الشمالية البعيدة على شواطئ المياه العظيمة في الغرب. كانا صديقين وفيين، يعملان على الدوام بانسجام، ويتوافر لديهما طعام كثير وعندهما عدد كبير من الخدم. ولم يكن النورس الأبيض يعرف المكر والخداع، وكان دائماً منفتحاً وصريحاً وصادقاً في تعامله مع الآخرين. أما الغراب فصفته المكر، ولم يكن يتورع أحياناً عن الخيانة والخداع. لكن النورس لم يكن يشك فيه، وعاش كلاهما حياة تسودها المودة. وفي تلك الأزمنة السحيقة، في بلاد الشمال، كان العالم برمته مظلماً، ولم يكن هناك ضوء سوى ضوء النجوم. وكان بحوزة النورس ضوء الشمس كلّه، لكنّه من شدّة بخله يحتفظ به طوال الوقت في صندوق مقفل، رافضاً أن يعطي شيئاً منه لأحد، أو أن يخرجه من الصندوق، إلا عندما يحتاج إلى قليل منه ليساعده في رحلاته البعيدة.

وبعد مضي فترة من الزمن، بدأ الغراب يحسد النورس على ما يملكه، وقال لنفسه: «ليس من العدل أن يحتفظ النورس بضوء الشمس كلّه لنفسه ويحبسه في صندوق، فهو للعالم كله، وليس له وحده، وسيكون ذا قيمة عظيمة لنا جميعنا إذا أخرج قليلاً منه بين الحين والآخر». لذلك ذهب إلى النورس وقال له: «أعطني قليلاً من ضوء الشمس الذي تحتفظ به، لأنك لا تحتاج إليه كلّه، ويمكنني أن أستخدمه في أشياء مفيدة»، لكن النورس قال: «لا، أريد أن أحتفظ به كلّه. فما حاجتك إلى ضوء الشمس وأنت ترتدي معطفاً أسود مثل سواد الليل؟». ولم يعطه شيئاً منه. وهكذا قرر الغراب أن يختلس من النورس قليلاً من ضوء الشمس.

وبعد فترة وجيزة، جمع الغراب قليلاً من الأشواك الخشنة ونثرها على الأرض بين بيت النورس والشاطئ حيث ترسو الزوارق. ثمّ اقترب من نافذة النورس وصاح بصوت عال: «الأمواج تجرف زوارقنا. أسرع وساعدني لإنقاذها»، فهبّ النورس وقفز من فراشه، وراح يجري نحو الشاطئ بقدميه الحافيتين وهو نصف نائم. وبينما يجري انغرزت الأشواك في جلده، وأخذ يصيح من شدة الألم. وعاد زاحفاً إلى بيته، وهو

يقول: «لتجرف الأمواج زورقي كما تشاء، إذ لا أستطيع أن أمشي بسبب الأشواك التي علقت في قدمي». وضحك الغراب في قرارة نفسه، وابتعد مدعياً أنه ذاهب إلى الشاطئ ليربط الزوارق. ثمّ دخل إلى بيت النورس. فوجده ما زال يجأر ويصرخ ألماً، وقد جلس على طرف فراشه يبكي ويحاول انتزاع الأشواك من قدميه. فقال له الغراب: «سأساعدك لأني فعلت ذلك عدة مرات. إني طبيب ماهر»، وأخذ مثقاباً من عظام الحوت وأمسك قدم النورس متظاهراً بأنه سيزيل عنها الأشواك، لكنه بدلاً من أن ينتزعها، أخذ يدفعها أكثر فراح النورس المسكين يصرخ بأعلى صوته. وقال الغراب: «إن المكان شديد الظلمة هنا، ولا يمكنني أن أرى جيداً كي أنتزع الأشواك من قدميك. أعطني قليلاً من ضوء الشمس وسأعالجك، إذ يجب على الطبيب دائماً أن يحصل على شيء من الضوء»، ففتح النورس الصندوق، ورفع الغطاء قليلاً، وظهر وميض باهت من الضوء. فقال الغراب: «هذا أفضل»، لكنه بدلاً من أن يستل الأشواك وينتزعها، غرزها أعمق كما فعل من قبل حتى بدأ النورس يصرخ ويركل من شدة ألمه. قال الغراب: «لماذا أنت بخيل في استخدام الضوء الذي لديك؟ هل تظن أنني بومة وأستطيع أن أرى في الظلام جيداً كي أعالج قدميك؟ افتح الصندوق أكثر، وسأعالجك وسأشفيك».

وعندما قال ذلك، تعّمد أن يسقط بقوة على النورس لكي يُسقط الصندوق على الأرض، ففُتح الغطاء وتسرب ضوء الشمس، وهرب وانتشر بسرعة في العالم برمته. وبذل النورس كل ما بوسعه لإغواء الضوء لكي يعود إلى الصندوق ثانية، لكن جهوده باءت بالفشل، لأنه ولّى إلى الأبد. وقال الغراب إنه آسف لما حدث، لكنه بعد أن استّل الأشواك وانتزعها كلها من قدمي النورس، عاد إلى البيت وهو يضحك في سريرته لنجاح حيلته.

وسرعان ما انتشر الضوء في العالم كله، لكن الغراب لم يكن يستطيع أن يرى جيداً، بسبب قوة الضوء الذي لم تعتده عيناه. وجلس لوهلة ينظر نحو الشرق، لكنّه لم ير ما يثير الاهتمام. وفي اليوم التالي بدأ يرى مسافة أبعد قليلاً، لأنه بدأ يعتاد على الأوضاع الجديدة، وفي اليوم الثالث، بدأ يرى بوضوح خطّ التلال البعيدة في الشرق المتصاعدة نحو السماء والمكسوة بضباب أزرق. وأخذ يحدق طويلاً في هذا المشهد الغريب. ثمّ رأى من بعيد باتجاه الهضبة عموداً رفيعاً من الدخان يتصاعد نحو السماء. ولم يكن قد رأى دخاناً من قبل، لكنّه سمع عنه كثيراً من مسافرين قادمين من أماكن غريبة، وقال: «لابد من أن هذه هي البلاد التي حدثّوني عنها؛ الأرض التي تقيم فيها الشعوب التي تمتلك النار،

والتي نبحث عنها منذ عصور عديدة، ويخيّل إليّ أننا وجدناها الآن»، ثمّ قال لنفسه: «أصبح لدينا الآن ضوء النهار، ويا له من شيء جميل أن نتمكن من الحصول على النار أيضاً».

وفي اليوم التالي، دعا الغراب خدمه وحدّثهم عن خططه، وقال: «سننطلق في الحال لأن المسافة بعيدة جداً»، وطلب من ثلاثة من أفضل خدمه مرافقته وهم: طائر أبي الحناء والخلد والبرغوث. أخرج البرغوث عربته الصغيرة، وحاولوا جميعهم أن يركبوا في العربة، لكنّها كانت صغيرة جداً ولم تسعهم جمعهم. ثمّ حاولوا الركوب في عربة الخلد، لكنّها كانت ضعيفة جداً، وما كادت أن تبدأ تتحرّك حتى توقفت وسقطوا جميعهم فوق بعضهم بعضاً. ثمّ جرّبوا عربة طائر أبي الحناء، لكنّها كانت مرتفعة جداً، وسقطت تحت حملها الثقيل، وألقت بهم على الأرض. ثمّ سرق الغراب عربة النورس الكبيرة المتينة، في أثناء نوم هذا الأخير، وانطلقوا في رحلتهم، وراحوا يتناوبون على دفع العربة على امتداد السهل المنبسط.

وبعد رحلة غريبة في أماكن غريبة، وصلوا إلى أرض الشعب الذي يمتلك النار مسترشدين بعمود الدخان الرقيق. ولم يكن هؤلاء الناس سكان الأرض. فقد قال بعضهم إنهم شعب السمك، ولم

يكن يعرف أحد عن ذلك، وتحلقوا حول النار في دائرة كبيرة، لأن الفصل كان خريفاً، وكانت الأيام والليالي باردة، فأوقدت النار في أماكن كثيرة. وراح الغراب يفكّر بأفضل خطة تمكّنه من الحصول على النار؛ ثمّ قال لطائر أبي الحناء: «أنت الأسرع بيننا، لذلك عليك أن تسرق النار. بإمكانك أن تطير بسرعة، وأن تلتقطها بمنقارك وتجلبها لنا، ولن يراك أو يسمعك أحد». لذلك اختار الطائر بقعة لا يوجد فيها سوى عدد قليل من الناس، وانطلق بسرعة والتقط النار بلمح البصر، وعاد طائراً إلى رفاقه سليماً. لكنّه لم يأخذ منها إلا قطعة صغيرة جداً. وعندما وصل إلى منتصف الطريق عائداً إلى أصدقائه، اشتدت حرارة النار في منقاره، فسببت له ألماً غريباً، فاضطر إلى إلقائها على الأرض، فسقطت على الأرض، ولما كانت صغيرة جداً، لم تحدث سوى وميض باهت. ونادى الطائر رفاقه لكي يجلبوا العربة، ثمّ وقف فوق النار وأخذ يهوّيها بجناحيه لكي تظل مشتعلة. كانت شديدة الحرارة، لكنّه وقف بشجاعة يؤدي مهمته حتى احترق صدره فاضطر لأن يطير مبتعداً عنها. وباءت جميع جهوده في إنقاذ النار بالفشل، وقبل أن يتمكن رفاقه من الوصول إليه، كانت النار قد انطفأت، ولم يتبق منها سوى جمرات سود، وكان صدر طائر أبي الحناء قد احترق قليلاً، لذلك لا يزال لون صدر أحفاده حتى يومنا هذا بنياً مائلاً إلى الحمرة لأنه احترق

عندما كان يحاول سرقة النار منذ عهود طويلة. ثمّ طلب الغراب من البرغوث أن يحاول سرقة النار، لكن البرغوث قال: «إن حجمي صغير للغاية، وقد تحرقني حرارة النار وأموت. بالإضافة إلى ذلك، فقد أخطئ في حساب المسافة وأقفز في اللهب»، ثمّ طلب الغراب من الخلد أن يحاول ذلك، لكن الخلد قال: «لا، فأنا أصلح لأعمال أخرى. إذ سيحترق فرائي مثل صدر أبي الحناء». وكان الغراب حريصاً على ألا يذهب بنفسه، لأنه كان جباناً رعديداً. لذلك قال: «هناك وسيلة أفضل وأسهل، فإذ خطفنا ابن زعيم القبيلة واحتجزناه وطلبنا فدية، فقد نحصل على النار». وقالوا إنها فكرة ممتازة. وسأل الغراب: «من منكم يتطوّع لاختطاف الطفل؟»، لأنه اعتاد جعل الآخرين يقومون بجميع الأعمال نيابة عنه، فقال البرغوث سأذهب أنا، فبقفزة واحدة أصبح في البيت، وبقفزة أخرى أخرج منه، لأنني أستطيع أن أقفز مسافات كبيرة». لكن الآخرين ضحكوا وقالوا: «أنت لا تستطيع أن تحمل الطفل. فحجمك صغير جداً»؛ فقال الخلد: «سأذهب أنا، فأنا أستطيع أن أحفر نفقاً بهدوء تحت البيت حتى أصل إلى مهد الطفل، فأسرقه من دون أن يسمعني أو يراني أحد».

واتفقوا على أن يذهب الخلد. وما هي إلا دقائق قليلة حتى حفر الخلد نفقاً، وعاد بسرعة حاملاً الطفل، ثمّ ركبوا عربتهم وعادوا بسرعة إلى بلدهم حاملين غنيمتهم.

عندما اكتشف زعيم شعب النار أنه فقد ابنه، استشاط غضباً، وعمّ حزن شديد أرجاء الأرض لأن وريث الزعيم، أمل القبيلة، قد اختفى. وبدأت أمّ الطفل ونساؤها يبكين بحرقة شديدة حتى انهمرت دموعهن كالمطر فوق الأرض برمتها. وقال الزعيم إنه سيعطي كل ما يملكه لمن يعثر على طفله. ومع أن شعبه بحث في كل مكان، لم يتمكن أحد من العثور على الطفل. وبعد أيام قليلة، نقل إليهم عابر سبيل قادم من بلاد المياه العظيمة في الغرب، خبراً مفاده أن طفلاً غريباً يعيش في البلاد الغربية في قرية قريبة من البحر، وقال: «إنه لا ينتمي إلى قبيلتهم. بل يشبه أطفال قريتكم»، ونصحهم بأن يذهبوا لرؤيته بأنفسهم. لذلك أرسل زعيم القبيلة رجاله للبحث عنه وأرشدهم في ذلك عابر السبيل، وعندما وصلوا إلى قرية الغراب قيل لهم إنه يوجد هنا حقاً طفل غريب، ووصفوا الطفل لهم، لكنّه كان محتجزاً ولم يكن بوسع أحد أن يراه، ولم يقل الغراب كيف جاء الفتى إلى هذا المكان. قال الغراب: «كيف أعرف أنه ابن زعيمكم؟ إن الناس يروون أكاذيب غريبة هذه الأيام، وإذا كنتم تريدونه فيجب أن تدفعوا فدية من أجل إطلاق سراحه، لأنه سببّ لنا مشكلات كثيرة وكلفنا نفقات كبيرة». وهكذا عاد الرسل ونقلوا ما سمعوه إلى الزعيم. ومن الوصف الذي قدموه، عرف زعيم القبيلة أن الطفل

هو ابنه، لذلك قدم لهم هدايا ثمينة من اللآلئ والعباءات الغالية الثمن، وأرسلهم ثانية لدفع فدية سراح ابنه. لكن الغراب عندما رأى الهدايا، قال: «لا، لا أريد هذه الهدايا، إنها لا تساوي ما كلفني من عناء ومشكلات»، ولم يقبل بالتخلي عن الطفل، ونقل الرسل إلى زعيمهم ما حدث، فقدم الزعيم المزيد من الهدايا، أفضل ما يملكه في أرضه كلها، وعاد وأرسلهم، لكن الغراب قال مرة أخرى: «لا، ليس من قيمة لهداياك هذه مقارنة بالعناء والنفقات التي تكبدتها. قل ذلك لزعيمك».

عندما سمع زعيم القبيلة ذلك من رسله، انتابته حيرة شديدة، لأنه قدّم أفضل ما لديه، وخيّل إليه أنه لم يعد يستطيع أن يقدم له شيئاً آخر، فقال: «عودوا واسألوهم ماذا ما يريدون لكي يطلقوا سراح ابني وسأقدم لهم ما يطلبونه إذا كان بوسعي ذلك». وهكذا عاد الرسل إلى الغراب، وقالوا له ما طُلب منهم. وقال الغراب: «هناك شيء واحد فقط يمكن تقديمه لقاء إطلاق الطفل، وهو النار. أعطوني النار، وعندها تستطيعون أن تأخذوا الطفل»، فضحك الرسول وقال: «لماذا لم تقل ذلك منذ البداية لتوفر علينا كلّ هذه المتاعب والقلق؟ فالنار أكثر الأشياء توافراً في مملكتنا، ولا نعيرها أي قيمة»، وهكذا عادوا سعداء إلى زعيمهم الذي أرسل إلى الغراب الكثير من النار واستلم طفله سليماً لقاء النار؛

وأرسل إلى الغراب قطعتين صغيرتين من الحجر وعلّموه كيف يستعملهما، وقالوا: «إذا فقدت النار، أو إذا انطفأت بسبب عدم وجود ما يغذّيها، تستطيع دائماً أن تعيدها إلى الحياة بقطعتي الحجر الصغيرتين هاتين». ثمّ علّموه كيف يشعل النار بواسطة قطعتي الحجر الصغيرتين وبعض الأعشاب الذابلة، ولحاء أشجار البتولا والصنوبر الجاف، وظن الغراب أن الأمر في غاية السهولة، وشعر بفخر شديد، لأنه جلب النار والضوء إلى الأرض، واحتفظ بالنار لنفسه لمدة طويلة. ومع أن الناس طلبوا منه أن يعطيها لهم، لم يعط أحداً منها شيئاً، لكنه سرعان ما قرّر أن يبيع كمية منها، لأنه أصبحت لديه القدرة على صنعها، وهكذا قال لنفسه: «هذه وسيلة جيدة لأحصل على عدة زوجات»، وأعلن بأنّه لن يبيع شيئاً من النار التي بحوزته إلا لقاء زوجة. واشترت منه أسر كثيرة النار، وحصل لقاءها على عدة زوجات. وحتى يومنا هذا، لا يزال لديه عدة زوجات ولا يزال يتنقّل من مكان لآخر، ولا يزال عدد منهن حوله دائماً. لكن عندما وصل الهنود أخذوا منه النار، وهكذا انتقلت النار إلى الهنود منذ غابر العصور. وعندما تخبو النار وتموت كما يحدث دائماً، يستخدمون حجر الصوان الذي كان يستخدمه الغراب لإعادتها إلى الحياة.

الفتاة التي لا تكّف عن البكاء

عاش في قديم الزمان رجل بومٌ في بيت صغير تحت الأرض على ضفاف جدول بعيد في الغرب. وكانت لديه عادات غريبة جداً، فقد عرف بابتعاده الدائم عن المياه العظيمة، وبتفضيله الغابة، وبقلة أصدقائه، وبذهابه وحده إلى الصيد واقتياته على ضفادع النهر وضفادع الجبل والذباب. كما كان قليل الكلام، فإذا تحلق حوله الناس وراحوا يتحدثون بابتهاج، تجده يلوذ بالصمت، ويحدّق في الفراغ بعينين مفتوحتين على وسعيهما، محاولاً أن يبدو أكثر حكمة مما هو في حقيقة الأمر. لذلك ظن الناس أن لهذا الرجل أطوار غريبة جداً، وسرعان ما انتشرت عنه حكايات غريبة وصلت إلى أقاصي البلاد، فقد قيل إنه فظ وقاس، وأنه إنما يصمت لأنه يفكّر بالأعمال الشريرة التي ارتكبها في ماضيه، أو بعمل شرّير سيرتكبه مستقبلاً. وبلغ الأمر حداً أنه عندما ترغب أمّ ما بتخويف ولدها المشاغب، تهدّده بأن الرجل البوم الذي يعيش قريباً من الجدول سيأتي ويأخذه ما لم يحسن

التصرف. وعلى الرغم من عزلة الرجل البوم هذه، فقد كان له تأثير كبير على الأرض كلها.

وفي مكان ليس ببعيد، عاش رجل وامرأة لهما ابنة بالتبني. وبما أنها طفلتهما الوحيدة فقد عاملاها بدلال شديد، ورغم ذلك لم تكن ترضى قطّ، ولم تكن تتوقف عن البكاء والتذمر طوال الوقت، ولا عن عن طلب أشياء لا يمكنها الحصول عليها. وكانت الفتاة تزعج جيرانها كثيراً وتحرمهم من النوم بسبب بكائها المستمرّ. وفي نهاية الأمر، ملّ الرجل والمرأة اللذان تبنياها من بكائها فقالا لها: «سيأخذك الرجل البوم إذا لم تكفّي عن البكاء»، لكنها استمرت في البكاء والتذمر. ثم قال الشيخ: «أتمنى أن يأتي الرجل البوم ويأخذها». وكان الشيخ ساحراً عظيماً، لذلك تحقّقت أمنيته.

في ذلك المساء، تصادف اجتماع الناس- كعادتهم في كلّ أسبوع- في احتفال لصيد السمك على الشاطئ المنار بضوء القمر، والذي رفضت الفتاة الحزينة كعادتها الانضمام إليه، وآثرت البقاء في البيت. وبينما جلست وحدها في البيت، جاء الرجل البوم الهرم يحمل سلته المليئة بالضفادع. فوجد الفتاة تبكي، فقال لها: «لقد أتيت إليك تلبية لرغبة الشيخ»، ووضعها

في سلته المليئة بالضفادع وحملها، وأخذت الفتاة تصرخ وتركل وتخرمش، لكن غطاء السلة كان محكم الإغلاق، وضحك رجل البوم في نفسه قائلاً: «لقد أصبح لديّ زوجة أخيراً، ولن أعود وحيداً بعد الآن، ولن يحسبني الناس غريب الأطوار». وهكذا حملها إلى بيته تحت الأرض بالقرب من الجدول. في تلك الليلة لاحظ الناس أنه لم تُعد تسمع صرخات الفتاة، وقالوا: «ما الشيء الذي يمكن أن يكون قد شفى الفتاة الحزينة، وجعلها تصمت فجأة؟». وتساءلت أمها بالتبني أين يمكن أن تكون قد ذهبت. لكن الشيخ وحده كان يعرف ما حدث بعد أن حصل على ما كان يتمناه بسبب قوّته السحرية، وأخذها الرجل البوم.

لم تشعر الفتاة بالسعادة في بيتها الجديد، لأنها لن تشعر بالسعادة في أي مكان. فظلت تبكي وتتذمر، واختفى الهدوء والسكينة من البيت. وكان الرجل البوم صيّاداً عظيماً، يخرج إلى الصيد كلّ يوم وهو يحمل سلته الكبيرة، بعد أن يقفل الباب على زوجته في البيت، ويعود دائماً بصيد وفير، وقد ملأ سلته بالضفادع وفئران الحقول والذباب، لكن زوجته لم تكن تأكل ما يجلبه من طعام، وتلقيه في وجهه عندما يقدمه لها، وتقول بفظاظة: «لن أتناول طعامك القذر. إنه طعام لا يليق بالناس

النبلاء»، فيجيبها الرجل البوم: «أناس نبلاء حقاً! يجب أن تجدي اسماً ملائماً أكثر؛ أنت لست فتاة لطيفة؛ أنت فتاة شرّيرة متوحشة، لكني سأروّضك». وكانت الفتاة تعود وتبكي وتعبس وتتجهم وتخبط بقدميها على الأرض بمزاجها السيئ.

وجاعت الفتاة أخيراً جوعاً شديداً، لأنه لم يكن هناك طعام يمكنها أن تأكله إلا ما يجلبه الرجل البوم إلى البيت. وكان يجمع لها قليلاً من التوت، لكنه لم يكن يشبع جوعها، لذلك وضعت خطّة للهرب. وفي أحد الأيام، عندما خرج الرجل البوم من البيت، أخذت قليلاً من الزيت الذي عثرت عليه في البيت، وفركته على وجهها وشعرها. وعندما عاد الرجل البوم في المساء، قال: «إنك جميلة جداً الليلة. ماذا فعلت حتى أصبحت ناعمة ومشرقة هكذا؟»، فأجابت، «لقد وضعت على وجهي وشعري صمغاً حصلت عليه من الأشجار ليلة البارحة، عندما ذهبت لأتمشى معك»، فقال: «أريد أن أضع قليلاً منه أيضاً، فلعله يجعلني وسيم الطلعة»، فقالت له الفتاة إنه إذا خرج وجمع قليلاً من الصمغ فإنها ستدهن به وجهه وشعره. وهكذا خرج وجمع كمية كبيرة من الصمغ من الأشجار وأحضرها لها. فأذابته على الموقد حتى صار بلسماً سهل الدهن، ثمّ قالت: «أغمض

عينيك لكي لا يؤذي عينيك، وسأجعل وجهك وشعرك جميلين مشرقين كما هو وجهي وشعري». أغمض الرجل البوم عينيه، وسرعان ما أخذت الفتاة تدهن وجهه ورأسه بالصمغ الناعم، ووضعت طبقة سميكة منه، وقالت: «أبق عينيك مغمضتين حتى يجفّ وإلا أصبت بالعمى». وفعل رجل البوم كما طلبت منه، لكن عندما جفّ الصمغ لم يعد يستطيع أن يفتح عينيه، وعندما حاول أن يفركهما لكي يفتحهما، انسلت الفتاة من الباب وراحت تجري عائدة إلى أبويها اللذين كانا يعيشان في مكان بعيد بالقرب من المياه العظيمة.

كشط رجل البوم الصمغ من وجهه ورأسه بقدر ما أمكنه، وعندما تمكّن من فتح عينيه وبدأ يرى جيداً، خرج في الليل بحثاً عن زوجته. وبينما يسير، أخذ يصيح، «أوه، أوه، أوه، أين زوجتي؟ أين فتاتي؟ لقد فقدت زوجتي. لقد أضعت فتاتي. أوه، أوه، أوه». وعندما سمع الناس صراخه، قرروا أن يهزؤوا به، فقالوا له: «إنها هنا، إنها هنا»، لكن عندما كان يدخل إلى بيوتهم، ويكتشف أن المرأة التي يرونها له ليست زوجته، يخرج حزيناً. فيضحك الناس ويسخرون من اضطرابه قائلين: «لقد ازداد الرجل البوم غرابة؛ لقد فقد رشده». وأخذ الرجل البوم

ينتقل من بيت إلى بيت، لكنّه لم يعثر علىِ زوجته. ثم توجه نحو الأشجار وراح يفتش بين أغصانها، مقتلعاً بعضها من جذوره، ظناً منه أنها ربما تكون مختبئة تحتها. وبعدئذ أخذ ينظر إلى مصائد سمك السلمون في الأنهار، ويركلها ويقطعها بغضب وهيجان شديدين. لكنه لم يعثر على زوجته في أي مكان.

ثمّ توجه إلى منزل الفتاة حيث اختبأت، وصاح: «أوه، أوه، أوه، أعطوني زوجتي. أعيدوا لي فتاتي. أعرف أنها هنا. أوه، أوه، أوه». لكن رفضت أمّ الفتاة بالتبني التخلي عنها، فبدأ يهدم المنزل على رأسيهما، لأن الشيخ لم يكن في البيت، ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يهدئ من حدة غضب الرجل البوم. وعندما رأت المرأة أن منزلها سيتهاوى بدأت تصرخ: «توقّف، إن زوجتك هنا». وأخرجت الفتاة من مخبئها. وعندما رآها الشيخ، هدأ وعاد سعيداً.

لكن في تلك اللحظة، عاد إلى البيت الشيخ ذو القوّة السحرية، بعد أن سمع أصوات الجلبة من بعيد، وعندما دخل ورأى الفتحات الكبيرة في السقف وعلى جدران بيته التي أحدثها الرجل البوم، استشاط غضباً وقال لنفسه: «سأعاقب الرجل البوم والفتاة على ما فعلاه الليلة»، ووضع خطّة. فقال

للرجل البوم: «يجب أن نقدم لك حمّاماً حاراً حتى يذوب الصمغ ونزيله من على شعرك، لأنّه سيسبب لك ضرراً شديداً، وسيزيل الشعر كلّه من رأسك». فوافق الرجل البوم بسعادة. وهكذا ملأوا حوضاً من خشب الشجر بالماء وسخّنوه بعد أن وضعوا تحته الحجارة الحارة بحسب طريقة الهنود في تلك الأيام الغابرة، لكن الشيخ أكثر من تلك الحجارة فبدأ الماء يغلي بسرعة، وعندما وضعوا رجل البوم في الحوض كاد يحترق جلده ويموت وراح يصرخ متألّماً. ثمّ قال الشيخ: «الآن سأنتقم منك. لن تعود تزعجني بعد الآن. لقد حطمت بيتي، ومن الآن وصاعداً، لن تكون رجلاً، بل بومة، وستسكن وحدك في الغابة مع عدد قليل من الأصدقاء، وستقتات على الضفادع وفئران الحقل، وسيسمعك الناس في الليل وأنت تنادي زوجتك بصوت مرتفع في الأرض كلها، لكنّك لن تعثر عليها»، وبقوّته السحرية حوّله إلى بومة وجعله ينطلق بعيداً.

وقال للفتاة، «لقد أسأت إليّ كثيراً، وتسبّبت لي بكلّ هذه المشكلات، ومن الآن وصاعداً، لن تكوني فتاة، بل سمك الصقر، وستبكين وتزعقين وتغضبين طوال الوقت كما تفعلين، ولن تعرفي الرضا قطّ»، وبقوّته السحرية، حوّلها إلى سمك

الصقر، وأرسلها إلى المحيط حيث لا تتوقف عن الصراخ، وأصبحت نهمة جداً لأنها لا تحصل على ما يكفيها من الطعام. ومنذ ذلك الحين، لم تقطن البومة وسمكة الصقر معاً، ولم يعودا يعيشان بمودّة، بل أصبحا يعيشان في أماكن بعيدة، وأصبحت البومة تلوذ بالغابات والجبال، بينما ظلت الأخرى في البحر. وهكذا انتقم الشيخ الساحر، وعوقبت الفتاة المتجهمة الباكية لأنها لم تكن تكّف عن البكاء، ولا تزال تُسمع صرخات السمكة الصقر والبومة في أماكن عديدة، واحد ينادي زوجته، والأخرى تصرخ غير راضية بسبب شيء ما لا يمكنها الحصول عليه.

القاقم[1] والصياد

في مكان بعيد من البلاد الشمالية الكندية، عاش شيخ هرم مع زوجته وأطفاله، في عزلة تامة عن الآخرين، لكنّهم لم يكونوا يشعرون بالوحدة على الإطلاق لكثرة مشاغلهم وأعمالهم. وكان الشيخ صيّاداً ماهراً، يقيت عائلته في الصيف على السمك، وفي الشتاء على الحيوانات التي يصطادها. وفي الربيع، يجمع السائل المستخرج من أشجار القيقب الذي يصنع منه العصير والسكر لتحلية الطعام. وفي يوم من أيام الصيف، وجد ثلاثة دببة صغيرة تأكل ما كان قد جمعه من السكّر، وعندما رآها، كانت قد أتت على كلّ السكّر الذي جمعه، فغضب غضباً شديداً، وقتل الدببة بهراوته الغليظة وسلخها وجفّف لحمها، لكن زوجته قالت: «لن يأتينا خير من ذلك. لم يكن ينبغي لك أن تقتل الدببة الصغار، لأنها لا تزال صغيرة على الذبح».

(1) Ermine: حيوان فروي من فصيلة بنات عرس(م).

وفي اليوم التالي، جاء الدبّ الهرم يبحث عن أطفاله الذين فقدهم، وعندما رأى جلودهم معلّقة كي تجّف، عرف أن الصيّاد قد قتلهم. فاعتراه حزن شديد واستشاط غضباً، ونادى الصيّاد قائلاً: «لقد قتلت أولادي الصغار الذين لا أمّ لهم، ولقاء هذا العمل الشرير، فإني سأقتل أطفالك ذات ليلة في غفلة منك ثم سأقتلك أنت وزوجتك، وسآكل كلّ ما لديك من طعام». وراح الشيخ يطلق سهامه عليه، لكن السهام لم تلحق به أي أذى لأنه ليس إلا الدبّ البني ذا القلب الحجري، ولا يستطيع أي إنسان أن يقتله. ولأيام وليال عديدة، حاول الشيخ أن يوقعه في الشرك، لكن من دون جدوى، وبدأ يلاحظ أن كمية الطعام لديه بدأت تتناقص يوماً بعد يوم، لأن الدبّ ذا القلب الحجري صار يأتي في الليل ويسرقه. قال الرجل لنفسه: «لابد من أننا سنموت جوعاً قبل حلول الشتاء، وقبل توافر الصيد مرة أخرى».

وذات يوم، عزم يائساً على أن يبحث عن شخص يعلّمه كيف يقتل الدبّ. فذهب إلى ضفّة النهر، وجلس هناك يفكّر ويدخّن بغليونه طويلاً. ونادى إله النهر قائلاً: «يا إله النهر، ساعدني على أن أُغرق الدبّ عندما يأتي ليصطاد السمك». كان النهر يأتي من بلاد حجر الكلس البعيدة الواقعة بين الصخور، ويتدفق بسرعة

نحو البحر، فقال إله النهر: «لا يمكن أن يجري مائي ببطء، فهناك ملايين المحارات على شاطئ المحيط تنتظر أصدافها، وإني في عجلة من أمري للذهاب إلى هناك لكي أحمل الكلس لأصنعها»، ومضى مسرعاً.

ثمّ نادى الشيخ روح الريح وقال: «يا روح الريح، امكثي هنا معي الليلة، وساعديني على قتل الدبّ ذي القلب الحجري. فبإمكانك أن تسقطي أشجاراً ضخمة على ظهره فتسحقه، لكن روح الريح قالت: «لا وقت لديّ، فهناك سفن كثيرة تحمل شحنات ثقيلة تقبع في المحيط منتظرة الإبحار، ويجب أن أسرع بكامل بقوتي لأدفعها»، ومثل إله النهر، انطلقت بسرعة.

ثمّ نادى الشيخ غيمة العاصفة التي مرت آنذاك فوق رأسه، وقال لها: «يا غيمة العاصفة، ابقي معي هنا هذه الليلة وساعديني على قتل الدبّ ذي القلب الحجري لأنه يريد أن يقتل أطفالي. إذ باستطاعتك إرسال البرق والرعد وقتله»، إلا أن غيمة العاصفة قالت: «لا أستطيع أن أتسكع في الطريق، ففي مكان بعيد من هنا، هناك ملايين أنصال الذرة والعشب تموت عطشاً تحت حرارة الصيف لأني أرى موجات الحرارة ترتفع فوق الأرض، لذلك فإني أتوجه إليها مسرعة بالمطر لأنقاذها». ومثل إله النهر وروح

الريح مضت بسرعة لتؤدي واجبها. واعترى الشيخ المسكين حزن شديد، لأنّه شعر أنه ليس هناك من يستطيع مساعدته على التخلص من الدبّ ذي القلب الحجري.

وبينما جلس يتساءل ماذا ينبغي له أن يفعل، جاءت امرأة عجوز وقالت: «إني جائعة ومتعبة جداً، لأني جئت من مكان بعيد. أيمكنك أن تقدم لي طعاماً وتدعني أستريح هنا قليلاً؟»، فقال: «يوجد لدينا قليل من الطعام لأن الدبّ ذا القلب الحجري يسرقه منّا في الليل، لكنك تستطيعين أن تشاركينا القليل المتوافر لدينا». وهكذا ذهب وأحضر لها وجبة طعام جيدة. وبينما تتناول عشاءها حدّثها عن مشكلته مع الدبّ، وأخبرها أنه ليس من أحد يمكنه مساعدته على الخلاص من هذه الآفة، وأنه ليس في وسع أي إنسان قتل الدبّ، فقالت العجوز: «هناك حيوان صغير يمكنه قتل الدبّ ذي القلب الحجري، وهو الحيوان الوحيد الذي يمكنه أن ينقذك. فقد فعلت خيراً لي، لذلك فإني سأعطيك عصا أحملها معي. نم هنا بعد قليل على ضفّة النهر، ولوّح بهذه العصا قبل أن تنام وردد ما سأعلّمك إياه، وعندما تستيقظ نادِ على أول حيوان تراه عندما تفتح عينيك. وسيكون الحيوان الذي أحدثك عنه، وسيخلّصك من الدبّ». وعلّمته قصيدة

صغيرة مقفاة، وأعطته عصا أخرجتها من السلة التي تحملها على ذراعها؛ ثمّ أخذت تسير مبتعدة وهي تعرج، وعرف الشيخ أن المرأة الغريبة آتية من جبل الجنيات الأزرق الذي سمع عنه كثيراً. تعجّب كثيراً، لكنه عزم على أن ينفذ ما قالته له.

بعد أن ذهبت العجوز، لوّح الرجل بالعصا الصغيرة ثلاث مرات، وصاح:

«أيها الحيوان، أيها الحيوان، اخرج من عرينك،

ساعدني على أن أذبح الدبّ البني الهرم!

اصنع لي بسحري سهماً أبيض صغيراً،

ليخترق الدبّ الهرم ذا القلب الحجري!».

كرّر هذه اللازمة ثلاث مرات، ثمّ شعر بالنعاس، وسرعان ما جاءه النوم. لم يكن قد نام طويلاً عندما أيقظته حرارة الشمس. فرك عينيه وأخذ يتطلع حوله. كان هناك حيوان يكسوه معطف بني أشعث يراقبه من وراء شجرة. فقال الشيخ لنفسه: «لابد من أن الجنّية الغريبة الأطوار الآتية من الجبل الأزرق قد خدعتني، لأنه لا يمكن أن يقتل الدبّ هذا الحيوان الصغير

الهزيل الضامر الذي يكسوه معطف رث قذر». لكنّه صمّم على أن يختبر صدق ما قالته. وعندما كرّر القصيدة القصيرة، أسرع الحيوان الصغير نحوه. فسأله الرجل: «من أنت؟»، فقال الحيوان الصغير: «أنا القاقم».

فسأله الرجل: «وهل أنت الحيوان الذي حدثتني عنه جنيّة الجبل الأزرق؟».

فقال القاقم: «نعم أنا هو، لقد أرسلتني إليك لأقتل الدبّ، وها هي السهام الصغيرة التي صنعتها عصاك السحرية القويّة»، وأشار إلى فمه مظهراً للشيخ أسنانه البيضاء الحادّة. فقال الشيخ وقد ارتفعت معنوياته: «إذن انطلق وباشر عملك». فقال القاقم: «ليس بهذه السرعة. يجب أن تدفع لي أولاً لقاء العمل الذي سأقوم به». فسأله الرجل: «وماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟». فقال الحيوان: «إني أخجل من معطفي البني القذر الذي ألبسه منذ زمن طويل، وأنت تملك سحراً عظيماً في العصا التي أعطتك إياها جنية الجبل الأزرق. أريد معطفاً أبيض ناعماً براقاً أستطيع أن ألبسه دائماً، لأني أريد أن أكون نظيفاً»، ولوّح الرجل بعصاه ثانية، وتمنّى ما طلبه الحيوان، وفي الحال حل معطف أبيض أملس براق نقي نقاء الثلج الجديد في الشتاء

محل معطف القاقم البني الأشعث، ثمّ قال الحيوان: «لديّ شرط آخر أريد أن أطلبه منك. يجب أن تعدني بأن لا تقتل جراء الدبّ الصغار وهم لا يزالون يتبعون أمّهم في الصيف، وأن تمنحهم الفرصة لأن يكبروا ويصبحوا أقوياء، حتى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم»، فوعده الرجل بذلك، ووضع يده على العصا ليؤكد قسمه. وعندما نظر ثانية، اختفت العصا من يده التي عادت في الهواء إلى جنّية الجبل الأزرق.

ثمّ انطلق القاقم وبدأ يبحث عن الدبّ. كان عصر ذلك اليوم شديد الحرارة، وكان السكون يخيّم على الغابة، ولم تكن هناك ورقة أو نصلة عشب تهتز، ولا أي اضطراب في مياه الجدول. كان العالم كله نعساً في ظل قيظ الصيف الجافّ. أما القاقم فلم يشعر بالحرارة، وكان سعيداً ومعنوياته مرتفعة بسبب معطفه الأبيض الجديد، وسرعان ما رأى الدبّ، ممدداً على ضفّة النهر، يأخذ قيلولته كعادته بعد أن يتناول وجبة طعام دسمة في منتصف النهار. كان مستلقياً على ظهره وفمه فاغر، يشخر بصوت مرتفع يشبه هدير شلال. فقال القاقم: «هذه هي آخر قيلولة لك»، وانسلّ إلى جانبه بهدوء، وأضاف: «لأنك لصّ خطير، فلن تنام ثانية»، وبوثبة واحدة، قفز فوق الدبّ، وبلحظة واحدة، مزّق

بأسنانه قلبه الحجري القوي، الذي لم تكن سهام الهنود تستطيع أن تخترقه. وبالسرعة التي دخل فيها القاقم إلى فم الدبّ، قفز خارجه وجرى مبتعداً. توقف الدبّ عن الشخير، لأنه مات، وتخلصت الأرض من سرقاته والرعب الذي كان يبثّه في نفوس الآخرين، ثمّ عاد القاقم إلى الشيخ وأخبره بأنه أنجز مهمته. كانت تلك الليلة بمثابة عيد عظيم في بيت الشيخ فأقام الولائم احتفاء بذلك. ومنذ ذلك الحين، أصبح القاقم في البلاد الشمالية يرتدي معطفاً أبيض ناعماً نقياً كالثلج الجديد في الشتاء. وحتى يومنا هذا، لا يقتل الصيّادون في أقصى الشمال، إذا تمكنوا من تفادي ذلك، جراء الدبّ الصغيرة وهي لا تزال تسير وراء أمهاتها في الغابة، حتى تكبر ويشتد عودها ويصبح بإمكانها الدفاع عن نفسها، كما طلبت الجنية الآتية من الجبل الأزرق.

كيف خدع الأرنب الثعلب

في قديم الزمان، في زمن الهنود في كندا، عندما كان الأرنب يعمل دليلاً في الغابة لصالح «غلوسكاب»، عرف بوصفه لصّاً كبيراً، يحبّ السرقة في ضوء القمر، فيتسلل خلسة إلى الحدائق والحقول حيث يزرع الهنود الخضروات، لأنه كان مولعاً بالملفوف والخسّ والفاصولياء. وفي مكان غير بعيد من بيته، عاشت أرملة عجوز وحيدة ليس لها أطفال. ولم تكن تستطيع أن تذهب إلى الصيد لأنها امرأة ولم تُدَرب على الصيد، فزرعت حديقة صغيرة تكسب رزقها مما تنتجه. وقد اعتادت العمل بجدّ من الفجر وحتى غروب الشمس، تحرث حديقتها الصغيرة، وتسقي الخضراوات، وتقتلع الأعشاب الضارة. وكانت تزرع الملفوف الأخضر، والجزر الأحمر، والفاصولياء الصفراء، والقرع الكبير، والذرة الهندية، تبيعها جميعها للصيّادين الهنود لقاء السمك واللحم. وهكذا وفرت لنفسها دائماً كمية كبيرة من الطعام، وعاشت حياة مريحة.

وفي أحد الأيام، وبينما يتجوّل الأرنب في المنطقة، اكتشف حديقتها التي تقبع في عمق الغابة، وراح يسرق منها في الليالي التي يضيئها القمر أو النجوم، فازداد سمنة ونعومة. وفي صباح أحد الأيام، اكتشفت الأرملة العجوز أن كميات كبيرة من الملفوف والجزر اختفت وأن ضرراً شديداً يلحق بمزروعاتها. ولم تكن تعرف أن الأرنب هو الذي يسرقها، لأنها سمعت أن السارق لص كبير، لكنّها لم تكن واثقة من ذلك، وراحت تراقب حديقتها لعدة ليال، لكنّها لم تعرف هوية السارق ولا تمكنت من الإمساك به، بسبب تسلله خلسة تحت جنح الظلام. لذاك قالت لنفسها: «سأصنع فزّاعة في هيئة رجل صغير، وسأضعها عند بوّابة حديقتي، وحينئذ ستبث الخوف في السارق وتجعله يهرب، لأني يجب أن أنقذ الخضروات التي أزرعها، وإلا متّ جوعاً في فصل الشتاء البارد». واستخرجت من أشجار الصنوبر والتنّوب القريبة من بيتها، كمية كبيرة من الصمغ والبلسم، وصنعت منها شكلاً يشبه رجلاً صغيراً. وصنعت عينان من الخرز الزجاجي تلمعان كالنار في ضوء النجوم، وأنفاً من ثمرة صنوبر، وشعراً من الذرة والأشنة الصفراء. ثمّ وضعته عند مدخل الحديقة من حيث يأتي السارق، وقالت لنفسها: «الآن سأخيف اللص». وعندما هبط الليل وطلع القمر منيراً

فوق الأشجار، جاء الأرنب كعادته ليسرق وجبة طعامه الليلية، وعندما اقترب من الحديقة بهدوء شديد، رأى في ضوء القمر ما بدا له رجلاً يقف في طريقه عند بوّابة الحديقة. وكان القمر معلقاً فوق الغابة، وكانت هناك طبقة رقيقة من الضباب الرمادي تغطي الأرض، لأن الخريف قد اقترب وأصبحت الليالي باردة؛ وبدت الفزّاعة التي في هيئة رجل صغير أكبر من شكل إنسان في ذلك الضوء الضبابي، وألقت ظلاً أسود طويلاً مثل عملاق على العشب. خاف الأرنب وبدأ يرتجف مثل ورقة شجرة الحور، لكنه لبث واقفاً بهدوء وراء إحدى الأشجار، وراح يراقب ذلك الشكل الغريب. لبث واقفاً لفترة طويلة من دون أن يأتي بحركة، يراقب ويتنصت، لكن الشكل الغريب لم يتحرّك، ولم يسمع الأرنب صوتاً سوى سقسقة صرصار الليل. وبحذر شديد أخذ يقترب، لكن ذلك الشكل ظل لابثاً دون حراك. ثمّ زال عنه الخوف وازداد شجاعة، لأنه كان جائعاً جداً، وكان يشمّ رائحة الخضروات وزهر العسل البرّي في هواء الليل الساكن. لذلك سار بشجاعة مقترباً من الرجل الدمية وقال له: «ابتعد عن طريقي ودعني أمرّ»، لكن الرجل لم يتحرّك، ثمّ ضرب الأرنب الرجل بقوة بقبضته، ومع ذلك لم يتحرّك. التصقت قبضة الأرنب بسرعة في الصمغ ولم

يتمكن من تحريرها؛ ثمّ ضربه بقبضته الأخرى، فالتصقت مثل اليد الأخرى. «سأركلك بقدمي»، قال الأرنب وقد استشاط غضباً وقال: «خذ هذه»، وركله بقدمه بقوة. لكن قدمه، مثل قبضتيه، التصقت في الحال. ثمّ ركله بالقدم الأخرى، لكنها علقت هي الأخرى في الصمغ. استشاط الأرنب غضباً، وقال في سورة غضبه: «سأعضّك الآن»، لكنه عندما عضّ الرجل الصغير، علقت أسنانه مثل قدميه ويديه على الفور. ثمّ اندفع بجسمه بكل ما أوتي من قوّة، متمنّياً أن يطرح الرجل الصغير أرضاً، لكن جسمه كله التصق بالرجل الدمية.

وراح يصيح بأعلى صوته، لأن الخوف تملّكه الآن. حينئذ سمعت العجوز صراخه، فخرجت من منزلها تجري، وقالت: «أهـا... إذن أنـت هو السارق الـذي يسرق الخضروات من حديقتي. سأخلّص العالم من آفة السرقة لأني سأقتلك هذه الليلة». ثمّ شدّته من الدمية المصنوعة من الصمغ، ووضعته في كيس متين، وربطت فتحة الكيس بخيط قوي، وتركته ملقى على الدرب بالقرب من بوّابة الحديقة، وذهبت تبحث عن فأسها لتقتل به الأرنب. وبينما قبع الأرنب هناك يتساءل كيف يمكنه أن يهرب، جاء الثعلب، وتعثّر بالكيس لأنه لم يره في العتمة، فسقط

أرضاً. فجن جنونه ونهض وأخذ يركل الكيس بقوة، رافساً ظهر الأرنب المسكين حتى بدأ يبكي ويصيح متألّماً. فسأله الثعلب: «من أنت أيها القابع في الكيس؟». فكان جواب الأرنب: «أنا صديقك الأرنب».

«وماذا تفعل مختبئاً في الكيس؟».

عندها فكّر الأرنب فجأة بطريقة يستطيع أن يهرب من خلالها، فقد كان يعرف أن الثعلب يبحث عن زوجة منذ أمد بعيد، لكن لم تقبل به أي فتاة زوجاً لها لأن أحداً لم يكن يثق به لاشتهاره بالخيانة والمكر الشديدين، وقال: «لست مختبئاً، ولكن تريد السيدة العجوز صاحبة هذه الحديقة أن تزوّجني حفيدتها، وعندما رفضت أمسكت بي ووضعتني في هذا الكيس. لقد ذهبت الآن لتحضر لي الفتاة من بيتها، لأنها تريدني أن أتزوّجها هنا في ضوء القمر في هذه الليلة، وأنا لا أريد ذلك لأنها بدينة، وأنا كما تعرف صغير جداً وهزيل»، وبدأ يبكي: بووو- هووووو - هووو»، فقال الثعلب: «أنا أبحث عن زوجة منذ زمن بعيد، وأحبّ الفتيات البدينات. لذلك دعني أدخل الكيس مكانك، وسأتزوّج الحفيدة بدلاً منك، لأن العجوز لن تعرفني في الظلام»، فوافق الأرنب بكل سرور. ثمّ حلّ الثعلب

فتحة الكيس وأخرج الأرنب ودخل مكانه، وأعاد الأرنب ربط فتحة الكيس وأسلم قدميه للجري.

عادت العجوز بعد قليل تحمل فأسها التي راحت تشحذها على قطعة من الحجر، وقالت: «سأقتلك الآن، ولن تسرق حديقتي بعد الآن. يجب أن تعيش المرأة الفقيرة من دون أن يزعجها أولئك اللصوص المحتالون». وعندما سمع الثعلب كلماتها وصوت الفأس الذي تشحذه على قطعة الحجر، عرف أن الأرنب قد خدعه. وعندما فتحت العجوز الكيس قفز فجأة خارج الكيس وهرب مبتعداً قبل أن تتمكن من الإمساك به. وأقسم بضوء النجوم بأن ينتقم من الأرنب، وراح يبحث عنه طوال الليل وطوال اليوم التالي، لكنّه لم يعثر له على أثر. وأخيراً، وجده عند الغسق في بقعة في الغابة، على الجانب الآخر من الجدول، يأكل ما جمعه من الخضروات البرّية. حاول الثعلب أن يستدرجه لكي يجتاز الجدول إليه، لأنه كان يخشى الماء، لكن الأرنب لم يوافق، وقال: «لماذا لا تأكل قليلاً من الجبن؟ هناك قطعة كبيرة مستديرة من الجبن في الجدول». نظر الثعلب في الجدول إلى حيث أشار الأرنب، ورأى انعكاس القمر الأصفر المستدير الكبير، فظنّ أنها قطعة جبن مستديرة، فقفز ليجلبها

لأنه شديد الولع بالجبن. وتمنّى الأرنب أن يغرق، إلا أن الجدول كان ضحلاً، فخرج الثعلب من الجدول من دون أن يحصل على قطعة الجبن، وكان خائفاً وقد تبلل معطفه وبدأ يشعر بالألم. ازداد حنقاً لأنه عرف أن الأرنب يريد الإساءة إليه، لكنّه كظم غيظه، بينما استمر الأرنب في تناول طعامه بهدوء وقناعة.

«ماذا تأكل؟»، سأله الثعلب لكي يشغله في الحديث ريثما يستطيع أن يفكّر بخطّة للإمساك به، فقال الأرنب: «إني آكل ثمرة ريانة لذيذة. أتناول بطيخة هندية»، فقال الثعلب: «ألق لي بواحدة»، لأنه كان جائعاً. فألقى له الأرنب ثمرة خيار برّية مستديرة كبيرة تكسوها أشواك خضراء. وقال الأرنب: «ابتلعها كلّها بلقمة واحدة، إنها لذيذة إذا أكلتها هكذا». كان قد حلّ الليل وكان ضوء القمر شاحباً بين الأشجار، ولم يستطع الثعلب رؤية ما يأكله، فابتلع الخيارة في لقمة واحدة، كما طلب منه الأرنب، بيد أن الأشواك علقت في حنجرته، وكاد يموت اختناقاً. وعندما كاد يختنق ويحمحم محاولاً أن يبصق الخيارة، هرب الأرنب مسرعاً وهو يضحك في سريرته. وعرف الثعلب أنه خُدع للمرة الثانية، وأقسم هذه المرة بأن يقتل الأرنب ما إن يعثر عليه، بل عزم على ألا يمنحه لحظة واحدة من الحياة عندما يراه.

واختبأ الأرنب بين الشجيرات الجافة طوال اليوم التالي، لكن ما إن بدأت الشمس تميل نحو الغروب، واحمرّت السماء في الغرب، وسكنت الريح تماماً، حتى جلس فوق جذع شجرة، كعادته، وأخذ يعزف بهدوء على نايه، لأنه كان يجيد العزف على الناي الهندي. وبينما هو كذلك، لمحه الثعلب فجأة. وقد رآه الأرنب وهو يراقبه من وراء الأشجار القريبة، لكنه على الرغم من أنه فوجئ به، فقد حافظ على رباطة جأشه. وكان الثعلب على وشك أن يثب عليه عندما قال له الأرنب: «لقد تزوجت ابنة زعيم القبيلة من محارب عظيم، وسيقام حفل الزفاف قريباً وسيمّر الموكب من هذا الطريق، وطلبوا مني أن أجلس هنا وأعزف لهم على الناي عندما يمرّون. وقد وعدوا بأن يدفعوا لي مبلغاً كبيراً، ودعوني لحضور وليمة العرس. تعال وانضم إليّ واعزف معي، وستحصل كذلك على أجر كبير، وسنذهب معاً إلى الوليمة ونتناول طعاماً لذيذاً». فكّر الثعلب بأن يدع الأرنب يحصل على المبلغ الذي وُعد به، لأنه كان طماعاً، ثمّ يسرق منه المال ويقتله ويأخذ نايه ويذهب إلى وليمة العرس وحده، وحينئذ يصبح انتقامه تاماً. لذلك قرّر أن يدع فورة غضبه تهدأ لبعض الوقت، وقال: «لا أملك ناياً، لذلك لا يمكنني أن أعزف موسيقى، لكنني سأجلس معك لأشاهد المدعوين إلى

حفل الزفاف وهم يمرّون»، لكن الأرنب قال: «خذ نايي. فلدي واحد آخر في البيت. سأذهب وأجلبه لأنه لا يزال أمامنا متسع من الوقت».

وهكذا أخذ الثعلب الناي وبدأ يعزف عليه بصوت مرتفع، وانسل الأرنب بعيداً بسرعة، مدعياً أنه سيذهب ليحضر نايه الهندي. بيد أنه كان عازماً على أن يضع نهاية لحياة الثعلب، لأنه بات خائفاً على حياته منه، وبدلاً من أن يذهب إلى البيت، أضرم ناراً حول جذع الشجرة التي يجلس عليها الثعلب. ولم يسمع الثعلب صوت هسيس النار بسبب صوت الموسيقى المرتفع الذي كان يعزفه على نايه، وخيّل إليه أنّ الضوء المنبعث لم يكن سوى ضوء القمر اللامع. واقتربت منه النار كثيراً قبل أن يعرف أنه في خطر، فحاول الهرب، لكنه لم يتمكن من ذلك لأن النار كانت قد أحاطت به، ولم يجد ثغرة يستطيع أن يعبر منها، وأخيراً، وبيأس شديد، قفز فوق حلقة النار لينجو بحياته. وبالفعل نجا من الموت، إلا أن جفنيه احترقا، واحترق معطفه الأسود الأملس الموشى ببقع فضّية وأصبح لونه أحمر مائلاً إلى البني. كان يتألم ألماً شديداً، وعرف أخيراً أنه لا يستطيع مجاراة ذكاء الأرنب، فعقد العزم على أن يدعه وشأنه، وأن يتخلّى عن فكرة الانتقام منه،

لأنه كان سعيداً بنجاته. لكنّه قرّر ألا يعيش ثانية في حال من الود والصداقة مع الأرنب. ومنذ تلك الليلة، لم يعد الأرنب والثعلب يصطادان معاً. وحتى يومنا هذا، تجد أحفاد الثعلب لهم عيون حمراء ويرتدون معطفاً أحمر مائلاً للبني، بسبب الحرق الذي تسبب به الأرنب لسلفهم في العصور السالفة.

الفتى والتنين

في قديم الزمان، قبل أن يأتي الرجل الأبيض إلى كندا، عاش فتى مع أبيه وأمّه في قرية قريبة من المحيط، ولما لم يكن له إخوة أو أخوات، فقد عاش وحيداً في معظم الأحيان، وكان يتوق للمغامرة ولصحبة الآخرين. فقرّر أخيراً أن ينطلق بحثاً عن مصيره وثروته في مكان آخر. وبينما يستعد للرحيل، تناهى إليه أن تنيناً ضخماً قد جاء إلى الأرض، وراح يعيث فيها فساداً ودماراً، ويبث الرعب والذعر أينما حلّ. وساد البلاد رعب شديد، لأن التنين كان يختطف النساء والأطفال ويلتهمهم الواحد تلو الآخر. والشيء الذي ظل لغزاً محيّراً، قدرته على أن يتحول إلى هيئة إنسان، ففي أحيان كثيرة يتخذ هيئة رجل وسيم لطيف يختلط بالناس لينفذ خططه الشنيعة قبل أن يدركوا أنه بينهم أو قريباً منهم. ورغم طلب زعيم القبيلة من الشبان أن يتطوعوا لمواجهة الرجل التنين، فلم يستجب له أحد من محاربيه الذين كانوا شديدي القوة والبأس في قتالهم مع الرجال، لكن مواجهة تنين أمر مختلف.

وعندما سمع الفتى هذه القصّة المروعة ورأى الخوف الذي بثّه التنين في نفوس بني قومه، قال: «لقد حانت فرصتي لأنجز عملاً عظيماً»، لأنه كان يشعر بأنه يمتلك قوّة تفوق قدرة البشر. لذلك ودّع أبويه وانطلق في مغامرته؛ وسار في الغابة طوال اليوم حتى وصل ذات مساء إلى هضبة عالية وسط مكان فسيح، وقال: «سأتسلّق هذه الهضبة، فلعلي أستطيع أن أشاهد البلاد كلّها من حولي». فتسلق قمّة الهضبة ببطء، وعندما وقف هناك وراح ينظر إلى البلد تحته على مسافة أميال عديدة من جميع الجهات حوله، ظهر فجأة رجل ووقف إلى جانبه. كان رجلاً لطيفاً دمثاً، وراحا يتجاذبان أطراف الحديث لبرهة من الوقت. كان الفتى حذراً، إلا أنه قال لنفسه: «لا يمكن أن يكون هذا الرجل الوسيم هو التنين»، وضحك من نفسه بسبب شكوكه هذه لكنه سرعان ما أبعدها عن تفكيره.

سأله الغريب: «إلى أين أنت ذاهب؟»، فأجاب الفتى: «إني مسافر إلى مكان بعيد، أبحث عن مغامرة في الغابة لأنه لا توجد مغامرات على شاطئ البحر. لكنه لم يخبره شيئاً عن مسعاه الحقيقي. فقال القادم الجديد: «يمكنك أن تمكث معي هذه الليلة، فلديّ مسكن مريح جداً لا يبعد كثيراً عن هنا، وسأقدم

لك الطعام». كان الفتى جائعاً ومتعباً، فرافق الرجل إلى مسكنه. وعندما وصلا إلى البيت، فوجئ الفتى برؤية كومة كبيرة من العظام البيضاء مكدّسة عند الباب، لكنّه لم يبد خوفاً ولم يعلّق على هذا المشهد المروّع. ووجد داخل البيت عجوز محنية الظهر، تحرك قِدراً بعصا غليظة، ورأى الفتى أن في القِدر حساء اللحم. وعندما وضعت المرأة الحساء أمامهما، قال الفتى إنه يفضّل أن يتناول الذرة لأنه خشي أن يأكل اللحم. فأعدّت العجوز قليلاً من الذرة له، وتناول وجبة جيّدة.

بعد أن تناولا الطعام، خرج الرجل ليجمع قليلاً من الحطب ليوقد النار، وجلس الفتى يتحدث إلى العجوز. فقالت له: «إنك فتى شاب ووسيم وبريء، بل أوسم فتى رأيته في حياتي في هذا المكان. لذلك فإني أرثي لحالك وأحذّرك من الخطر المحدق بك، فالرجل الذي التقيته في الغابة والذي تناولت معه العشاء هذه الليلة هو الرجل التنين الذي طالما سمعت عنه. ولا يمكن لأحد أن يقتله في معركة عادية، لذلك سيكون من الحماقة أن تحاول ذلك؛ وإذا بقيت هنا فإنه سيقتلك غداً. خذ هذا الخف الذي سأعطيك إياه، وانتعله عندما تنهض في الصباح، وستصل بقوّة الخف بخطوة واحدة إلى ذلك التلّ الذي تراه من بعيد.

أعط هذه القطعة من خشب البتولا والصورة المحفورة عليها إلى رجل ستلتقيه هناك، وسيخبرك بما يجب عليك فعله، لكن تذكّر أنك مهما ابتعدت، فإن الرجل التنين سيلحق بك في المساء».
أخذ الفتى الخف وقطعة خشب البتولا المحفورة عليها الإشارة السرية وخبأهما تحت معطفه، وقال: «سأفعل ما نصحتني به».
لكن المرأة قالت: «هناك شرط آخر. يجب أن تقتلني في الصباح قبل أن تذهب، وأن تغطي جسدي بهذا الرداء، وحينئذ سيبطل سحر الرجل التنين عليّ، وعندما يتركني، سأعيد نفسي بقوّتي إلى الحياة».

نام الفتى واستلقى الرجل التنين طوال الليل إلى جانبه لكي لا يهرب. وفي صباح اليوم التالي، عندما خرج الرجل التنين ليجلب ماء من الجدول الذي يبعد قليلاً، نفّذ الفتى تعليمات العجوز. فقتلها في البداية بضربة واحدة، وغطّى جسمها بعباءة براقة، لأنه كان يعرف أنه عندما يغادر الرجل التنين البيت فإنها ستنهض ثانية، ثمّ انتعل الخف السحري وبخطوة واحدة كبيرة وصل إلى التلّ البعيد. وكما هو متوقع، التقى شيخاً مسنّاً، فأعطاه قطعة خشب البتولا المحفورة عليها الإشارة السرية.
نظر الرجل إليها بعناية وابتسم وقال: «إذن أنت هو الفتى

الذي طُلب إليّ أن أنتظره. هذا جيد لأنك حقاً شاب وسيم»، وأعطاه نعلاً آخر بدل النعل الذي كان ينتعله، وقطعة أخرى من خشب البتولا وقد نُقشت عليها رسمة أخرى، وأشار إلى تلّ أزرق على مسافة بعيدة، وقال له: «بخطوة واحدة ستصل إلى ذلك التلّ. أعط هذه القطعة إلى رجل ستلتقيه هناك، وسيصبح كلّ شيء على ما يرام».

انتعل الفتى الخف، وبخطوة واحدة وصل إلى التلّ البعيد، حيث التقى شيخاً آخر، وأعطاه قطعة خشب البتولا، وقدم له هذا الرجل نعلاً آخر، وورقة ضخمة من شجرة القيقب نُقش عليها رمز غريب، وطلب منه أن يتوجه إلى مكان آخر، حيث سيتلقى تعليمات أخيرة. فعل كما طُلب منه، والتقى هناك شيخاً قال له: «يوجد هناك جدول. اذهب إليه وسر فوقه كأنك تمشي على أرض جافّة، ولا تنظر إلى الماء. خذ هذه القطعة من شجرة البتولا المنقوش عليها هذه الأشكال السحرية التي ستحوّلك إلى أي شيء تريده، وستقيك من أي أذى». أخذ الفتى قطعة الخشب كما طُلب منه، وسرعان ما وجد نفسه على الضفة المقابلة للجدول. وسار مسافة متتبعاً الجدول، ووصل في المساء إلى بحيرة. وبينما يتطلع حوله بحثاً عن مكان دافئ يمضي فيه

ليلته، وجد الرجل التنين فجأة، الذي اتخذ الآن هيئة تنين، مختبئاً وراء الأشجار. لقد تحققت نبوءة الشيخ، لأن عدوه تمكّن من اللحاق به قبل أن يهبط الليل كما قالت له. لم يكن أمامه وقت يضيعه، لذلك لوّح الفتى بقطعة الخشب السحرية، فتحول فوراً إلى سمكة صغيرة ذات زعانف حمراء تتحرّك ببطء في البحيرة.

عندما رأى الرجل التنين السمكة الصغيرة، صاح: «أيتها السمكة الصغيرة ذات الزعانف الحمراء، هل رأيت الفتى الذي أبحث عنه؟». فقالت السمكة الصغيرة: «لا يا سيدي، لم أر أحداً. كنت نائمة. لكن إذا مرّ أحد من هذا الطريق فإني سأخبرك»، وعاد مسرعاً إلى البحيرة. وسار الرجل التنين على طول ضفّة البحيرة، بينما راح الفتى يراقبه من الماء. التقى ضفدعاً في طريقه، فسأله: «أيها الضفدع الصغير، هل رأيت الفتى الذي أبحث عنه؟ فأجاب الضفدع: «لو كان قد مرّ من هذا الطريق لرأيته. إني مشغول في عملي»، ووثب بعيداً بين الأشنة؛ ثمّ رأى سمكة ضخمة يطفو رأسها فوق الماء، تبحث عن الذباب، وسألها: «هل رأيت الفتى الذي أبحث عنه؟»، فقالت السمكة: «نعم، كنت تتحدث إليه الآن»، وضحك ساخراً واختفى. عاد الرجل التنين يبحث عن الضفدع في كل مكان، لكنه لم يعثر

عليه. وبينما يبحث عنه، صادف فأر مسك يجري على طول الجدول، فسأله غاضباً: «أرأيت الشخص الذي أبحث عنه؟»، فقال الفأر: «لا». فقال الرجل التنين أظن أنّه أنت»، ثمّ أخذ فأر المسك يبكي بحرقة وقال: «لا، لا. لقد مرّ الفتى الذي تبحث عنه من هنا الآن، وداس فوق سقف منزلي وحطمه». وهكذا خُدع الرجل التنين مرة أخرى وتابع سيره. وسرعان ما صادف سلحفاة عجوزاً تخبط في الطين، فقال لها راجياً أن يتملقها ليشبع كبريائها: «أنت مسنة وحكيمة، ولابد من أنك رأيت الفتى الذي أبحث عنه»؛ فقالت السلحفاة: «نعم، إنه هناك في أسفل الجدول. اعبر النهر وستجده، لكن احذر، لأنّك إذا لم تعرفه عندما تراه، فسيقتلك». فقد كانت السلحفاة تدرك جيداً أن الرجل التنين سيلقى حتفه الآن.

تتبع الرجل التنين البحيرة حتى وصل إلى النهر، وبحذر شديد، ولكي لا يمكن كشفه بسهولة، تحوّل إلى أفعى، ثمّ حاول عبور الجدول. لكن الفتى الذي كان لا يزال متخذاً هيئة سمكة، ولا يزال يستخدم قوّة قطعة الخشب السحرية المحفورة عليها إشارة سحرية، أخذ يعوم في دائرة وسط النهر. وظهرت دوّامة سريعة في المكان الذي سبح فيه، لكنه لم يكن مرئياً على السطح. وعندما

اقتربت الأفعى منها، وجدت ماء نقياً فحسب، ولم تستطع أن تتعرّف على عدوها، وكما طلبت منها السلحفاة، بدأت تعوم في الدوّامة قبل أن تدرك ذلك، وهكذا جرتها إلى القاع بسرعة كبيرة وغرقت.

أخرجها الفتى وقطع رأسها، ثمّ عاد إلى هيئته الأصلية، وتوّجه إلى مسكن الرجل التنين ليرى ماذا فعلت العجوز، لكنها كانت قد ذهبت مع ردائها البراق، وكان البيت فارغاً؛ ثمّ عاد الفتى إلى بيته وحكى لبني قومه ما حققه، وقدم له زعيم القبيلة هدايا ثمينة كثيرة على عمله الشجاع، ولم يعد التنين يزعج أهل الأرض ثانية. لكن منذ ذلك الحين، بدأ الجميع يكرهون فصيلة الأفعى لأنها تخفي في شكلها الرجل التنين، وحتى يومنا هذا، لا يدع أي هندي أحمر أفعى تنجو بحياتها إذا ما صادف إحداها في طريقه، لأنه لا يزال يتذكر مغامرة أسلافه في الماضي، ويرتاب من القوة الشريّرة التي تمتلكها فصيلة الأفعى سراً.

البومة ذات الرأس الضخم والعينين الواسعتين

منذ قديم الزمان، عندما كان «غلوسكاب» حاكماً للهنود الحمر في شرق كندا، وكانت الحيوانات جميعها تأتمر بأوامره وتتكلم مثل البشر، كان الذئب أحد أعداء الأرنب. في الظاهر، كانا يبدوان صديقين، رغم خشية أحدهما من الآخر وارتيابه من أنه سيخونه. وقد عرف الأرنب بإخلاصه ووفائه في عمله كمرشد في الغابة يدلّ الناس إلى الطريق الذي يفضي إلى الأماكن البعيدة؛ لكنّه كان كذلك محتالاً كبيراً يجد متعة ما بعدها متعة في ممازحة كلّ من يلتقيه، ويحب خاصة استفزاز الذئب لأنه يكره أساليبه الفظة، ويستطيع دائماً أن يبزّه في الذكاء.

وتصادف أن عاش الأرنب والذئب معاً في أعماق الغابة الكندية. وعلى مسافة غير بعيدة عنهما، عاشت أرملة فقيرة في منزل صغير مع ابنتها الوحيدة التي تعدّ آية في الجمال، ذات شعر أسود مثل جناح الغراب، وعينين سوداوين مثل الظلام تحت الماء. فوقع الأرنب والذئب في غرامها، وأراد كل منهما أن يتخذها زوجة له. وبذل الأرنب كل ما في وسعه للفوز بحبّها. فصار

يزورها مرتدياً دائماً معطفاً بنياً ناعماً، وواضعاً سواراً حول رقبته، وأجراساً في أقدامه، عازفاً على نايه ألحاناً جميلة، وراجياً أن يتمكن من أن يجذبها بموسيقاه لأنه كان عازفاً عظيماً على الناي الهندي. كما أنه حاول إطالة شاربه ليخفي شفته المشقوقة، لكنّه لم يفلح كثيراً في تحقيق ذلك، لأن شاربه لم يكن سميكاً، بل رقيقاً متهدلاً فيه شعرات قليلة حتى يومنا هذا. لكن مهما فعل الأرنب ليزّين نفسه، لم تكن الفتاة تعيره أي اهتمام، لأن الذئب الهرم على ما يبدو استحوذ على اهتمامها، لأنها أحبّت شكله المرن الرشيق، وأساليبه الدمثة والخجولة؛ مما تسبب للأرنب المسكين بأشد الكرب.

وفي أحد أيام الربيع الجميلة، صادف الأرنب الفتاة وأمّها وهما تقطفان أزهار الربيع بين الطحالب، فزحف مقترباً منهما لكي يتصنت على ما تقولانه. فسمع الأمّ تقول: «لا أميل كثيراً للأرنب الصغير، لكن الذئب يدخل السرور إلى نفسي. يجب أن تتزوّجي الذئب. يقولون إنه صيّاد عظيم، وإذا تزوّجته فلن نحتاج إلى الطعام».

عندما سمع الأرنب ذلك، اعتراه حزن شديد، وعقد العزم على ألا يتزوج الذئب بأي شكل من الأشكال ابنة الأرملة، وعلى

أن يبذل كل ما بوسعه ليمنع حدوث ذلك. وفي تلك الليلة، ذهب وحده إلى بيت الفتاة، وتحدث عن الذئب ساخراً، وقال بتجهم شديد: «إن الذئب ليس صيّاداً، فلم يصطد في حياته شيئاً لأنه كسول ولا يملك عقلاً، ويجب عليّ دائماً أن أقدم له الطعام لكي لا يتضوّر جوعاً، وما هو إلا دابة للحمل، أمتطيه دائماً عندما أسافر إلى بلاد بعيدة، لأنه لا يصلح لعمل شيء آخر». فتعجبت أمّ الفتاة كثيراً، وفوجئت بما سمعته لأنها لم تكن ترغب في أن تتزوج ابنتها شخصاً عديم الفائدة، لكنّها لم تكن واثقة من أن الأرنب يقول الحقيقة، لأنها سمعت أنه يكذب أحياناً. لذلك قالت له: «إذا امتطيت الذئب إلى هنا فإني سأصدّقك، ولن أزوّجه ابنتي، وسأزوّجها لك». عاد الأرنب إلى بيته مسروراً متأكداً من أن حيلته ستنطلي على الذئب وسينتهي به الأمر نهاية سعيدة.

وفي اليوم التالي تقصّد الأرنب أن يلتقي الذئب في الغابة، وقال له: «لنذهب معاً لزيارة ابنة الأرملة»، فأحسّ الذئب بالسعادة، ولم يقطعا مسافة طويلة، حتى بدأ الأرنب يبكي، ثمّ ارتمى أرضاً، وراح يتدحرج ويئن ويفرك بطنه، وكأنه يتألم ألماً شديداً. وقال وهو يجهش في البكاء: «أشعر بألم شديد في بطني، ولم أعد أستطيع أن أمشي، وإذا مشيت فلابد من أني سأموت،

ولن أستطيع أن أكمل الطريق إلا إذا حملتني على ظهرك». فوافق الذئب بطيب خاطر لأنه كان يريد أن يرى الفتاة الجميلة، وحزن كثيراً على ألم الأرنب. وامتطى الأرنب ظهر الذئب وهو يضحك في قرارة نفسه، وأخذ الذئب يجري، غير شاعر بثقل على ظهره لأن وزن الأرنب خفيف جداً، ولم يقطعا مسافة طويلة، حتى بدأ الأرنب يبكي مرة أخرى، وقال: «لا أستطيع الركوب دون سرج، لأن ظهرك العاري يؤلمني ويسبب لي بثوراً». فاستعارا سرجاً صغيراً من حقل على جانب الطريق، ووضعاه على ظهر الذئب. ثم قال الأرنب: «إنها لعبة جميلة، هيا لنلعب لعبة تكون فيها أنت الحصان وأنا الراكب. أريد أن أضع عليك لجاماً صغيراً، وأضع مهماز في قدمي وأحمل سوطاً». كان الذئب يريد أن يدخل البهجة إلى نفس الأرنب لكي ينسى ألمه، فوافق برحابة صدر. وهكذا استعارا لجاماً ومهمازين صغيرين وسوطاً من حقل قريب آخر، وفعل كما طلب منه الأرنب، وتوجها معاً إلى بيت الفتاة. كان الذئب يخب على الطريق مثل حصان صغير، بينما الأرنب يضحك في سريرته، وهو جالس على السرج، واضعاً قدميه في المهمازين وحاملاً السوط وممسكاً اللجام. وعندما اقتربا من المنزل، أحدث الأرنب جلبة عالية لكي تنظر الأمّ وابنتها إلى خارج البيت لتعرفا مصدر الجلبة. وصاح بصوت

عال: «ووا، ووا»، ففتحت الفتاة وأمّها الباب، ونظرتا إليهما باستغراب شديد. وبينما تنظران إليهما، ضرب الأرنب الذئب ضربة قوية بسوطه، ولكزه بمهمازيه في وسط خاصرتيه وهو يضحك في قرارة نفسه، وقال له بصوت مرتفع إنك دابة كسولة، فأخذ الذئب يثب ويركل من شدة الألم التي سببتها وخزة المهماز على خاصرتيه، ولسعة السوط، وغضب غضباً شديداً، لكنه لم يقل شيئاً.

وبعد مسافة قليلة، ربط الأرنب الذئب إلى شجرة، وقال له: «ابق هنا وسأرسل لك الفتاة»، وتوّجه إلى البيت، وقال للمرأة: هل صدّقت الآن أنّ الذئب ما هو إلا دابة للحمل لأني أمتطيته حتى هنا»، فصدّقته المرأة. وطلبت منه أن يقدم للذئب قليلاً من الذرة أو العشب، لكن الأرنب قال: «إنه لا يأكل الذرة أو العشب، بل يأكل اللحم الطازج فقط»، لأنه كان يعرف جيداً أن الذئب سيكون سعيداً إذا ما تناول وجبة طعام جيّدة من اللحم. ثمّ أعطته قليلاً من اللحم الطازج فأخذه إلى الذئب الذي شعر بالسعادة وتلاشى غضبه، ونسي الألم الذي سببه له المهمازان والسوط، وخيّل إليه أنها لعبة مسلية لكي يحصل بسهولة على وجبة طعام دسمة. ووعدت المرأة

الأرنب بأن تزوجه ابنتها، وعندما هبط الليل، عاد الأرنب إلى بيته تغمره السعادة، وترك الذئب مربوطاً عند الشجرة. كان الظلام شديداً، لذلك لم يره الذئب وهو يغادر البيت، وظن لفترة طويلة أنّه لا يزال داخله، وانتظر طويلاً تحت ضوء النجوم. وأخيراً ملّ الانتظار، لأنه شعر بالجوع والبرد بسبب وقوفه بلا حراك في هواء الليل البارد في بداية الربيع. فقطع بأسنانه اللجام الذي يربطه بالشجرة، ثم توجه إلى منزل المرأة، لكنها لم تسمح له بالدخول، وطلبت منه ألا يقترب من البيت، وقالت له إنها لا تريد أن تراه ثانية، وأطلقت عليه عبارة «دابة حمل كسولة». فعاد إلى البيت غاضباً، لأنه عرف الآن أن الحيلة قد انطلت عليه، وأقسم بأنّه سينتقم من الأرنب.

وفي اليوم التالي عرف الأرنب من المرأة أنها طردت الذئب من باب بيتها، وعرف أن الذئب أدرك أنه قد خُدع. فانتابه شيء من الخوف لأنه خشي أن ينتقم منه الذئب، واختبأ بين الأشجار أياماً عديدة. ثمّ دفعه الجوع للخروج من البيت ليبحث عن طعامه، فدخل ذات مساء إلى حديقة يفتش فيها عن الملفوف. وفيما هو منهمك بسرقته، رآه أصحاب الحديقة، وقالوا: «ها هو اللص الذي يسرق خضرواتنا. سنمسك به ونلقّنه درساً»،

وبسرعة كبيرة انقضوا على الأرنب الذي لم يشعر بوجودهم لأنه كان يأكل بشراهة من شدة جوعه، فأمسكوا به وقيّدوه بسرعة إلى شجرة وذهبوا ليجلبوا ماء ساخناً ليدلقوه على ظهره لكي يتعلم ألا يسرق من حديقتهم ثانية. لكن ما إن ابتعدوا قليلاً، حتى جاء الثعلب الذي كان كذلك جائعاً، لأنه لم يتناول طعاماً منذ أيام عديدة، لكنّه شعر بالسعادة عندما رأى الأرنب، وقرر أن ينتقم منه الآن. كان الأرنب قد رآه من بعيد، وعزم على خداعه ثانية. حيّاه لكي يعتقد بأنه لا يزال صديقه، وناداه: «أيها الذئب، ساعدني. أيها الذئب، ساعدني. فقد طلب مني أصحاب الحديقة هنا أن أتناول حملاً صغيراً لذيذاً، وعندما رفضت، قيدوني بهذه الشجرة، وذهبوا ليحضروا الحمل لي».

كان الذئب جائعاً جداً إلى درجة أنه نسي ما جاء لفعله، ونسي أن الأرنب قد خدعه، لأن الحمل الربيعي هو طعامه المفضل، وقال: «سآكل الحمل الصغير»، وبدأ يتلمظ بشفتيه وهو يفكّر بوجبة الطعام الطرية الشهية التي سيتناولها، فقال الأرنب: «فك قيدي وخذ مكاني، إذ سيأتي الناس بعد قليل بالحمل»، وهكذا فكّه الذئب، وقيّد الأرنب الذئب مكانه إلى الشجرة، وضحك في قرارة نفسه لأنه خدع الذئب الغبي للمرة الثانية،

وأخذ يجري بسرعة مبتعداً. واختبأ في مكان بعيد وراء الأشجار ليرى ما سيحدث. وبعد قليل عاد الناس حاملين قدوراً فيها ماء مغلي. وعندما رآهم الذئب قادمين، تحمس بكل لهفة لأنه ظن أن الحمل الذي سيأكله يقبع في إحدى تلك القدور. كان القمر يضيء تلك الليلة، وفي ظلّ الشجرة الضخمة، لم ير الأشخاص بوضوح، وظنوا أنّ الذئب هو الأرنب لا يزال مقيداً في المكان الذي تركوه فيه. فدلقوا الماء المغلي على ظهره، وراحوا يركلونه ويضربونه بهراوة غليظة على رأسه، وقالوا: «الآن، أيها اللصّ، لقد لقنّاك درساً لتتعلم أن سرقة الحدائق في ضوء قمر الربيع شيء خطير. وراح الذئب يعوي ألماً لأن ظهره امتلأ بالحروق، وتورّم رأسه، فسمعه الأرنب الجالس فوق جذع شجرة واهتزّ جسده من الضحك لأن حيلته انطلت على الذئب.

ثمّ فكّ الأشخاص وثاق الذئب وأطلقوه، فغادر المكان وراح يسير متعباً بين الأشجار، وأقسم مرة أخرى أن ينتقم من الأرنب، وعزم على أن يقتله لحظة يراه، لأنه عرف أنه خُدع مرة أخرى، وراح يبحث عن عدوه أياماً عديدة. وأخيراً، وذات ليلة مقمرة، رأى الأرنب جالساً في بقعة تكسوها نباتات التبغ الهندي، يتناول طعامه، ويمضغ أوراق التبغ سعيداً قانعاً. كان

فم الأرنب مليئاً بالتبغ، لكنّه أخذ يضحك بصوت مرتفع عندما رأى ظهر الذئب ملفوفاً بالضمادات بسبب الحروق، ورأسه المتورم مربوطاً بقطعة من القماش، لكنه عندما رأى عيني الذئب الغاضبتين، سرى الخوف في أوصاله، وهرب إلى داخل الغابة. كان القمر مضيئاً في الغابة، وكان الذئب يلمح بين الحين والآخر معطفه البني بين الأشجار، فطارده مسافة طويلة، وجرّب الأرنب جميع خدعه لكي يثنيه عن عزمه، بيد أنه لم يفلح. وأخيراً، عندما كاد الأرنب أن يصاب بالوهن، هرب إلى داخل شجرة مجوّفة، وانزلق في فتحة صغيرة فيها، ولم يعد الذئب يستطيع الإمساك به. وقال الذئب: «لقد أصبح الآن في قبضتي. سأقتله، لكن يجب أولاً أن أذهب إلى البيت لأحضر فأسي لأقطع الشجرة وأقطع رأسه»، ثمّ تطلع حوله يبحث عن أحد يطلب منه أن يحرس الشجرة خلال فترة غيابه لكي لا يهرب الأرنب. ورأى أخيراً البومة جاثمة بهدوء على غصن قريب، فناداها قائلاً: «راقبي هذه الفتحة حتى أعود، ولا تتركي الأرنب يهرب»؛ وهكذا نزلت البومة وقبعت بالقرب من الفتحة ووعدت الذئب بحراسة الأرنب السجين، وذهب الذئب ليحضر فأسه.

لم يُقبض على الأرنب حتى ذلك الحين، وكانت في جعبته خدعة أخرى. وما إن ابتعد الذئب، حتى نادى البومة الجائمة بالقرب من الفتحة، وقال لها: «أيتها البومة، تعالي وشاهدي الغرفة التي أقيم فيها في الشجرة»، لكن البومة أجابت، «إنها شديدة الظلمة، ولا أستطيع أن أرى»، فقال الأرنب: «افتحي عينيك على وسعيهما، وقرّبي وجهك من الفتحة لأنه يوجد لديّ ضوء لكي تتمكني من الرؤية بسهولة. ودفعها فضولها إلى أن تفعل كما طلب منها الأرنب الذي كان يمضغ كمية من عصير التبغ الهندي، وعندما قرّبت البومة وجهها من الفتحة نفث العصير في عيني البومة، فصرخت عالياً لأن عينيها بدأتا تؤلمانها ولم تعد ترى لأن العصير تسرب إلى عينيها؛ وبدأت تجري حول الشجرة، وهي تخبط بقدميها، وتصرخ وتفرك عينيها لكي تخفف عنهما الألم، هي منهمكة في ذلك، انسل الأرنب من الفتحة وهرب، ولم تعرف البومة إلى أين ذهب.

وسرعان ما عاد الذئب حاملاً فأسه الكبير الحادة، وقال: «سأقتله الآن وأتخلص منه»، وخافت البومة أن تخبره بما حدث لعينيها اللتين تؤلمانها، واللتين كانتا لا تزالان مفتوحتين على وسعيهما، ولم تعد تستطيع أن تغلقهما. وعلى الفور قطع الذئب

الشجرة المجوّفة، وشطرها إلى قسمين من الأعلى إلى الأسفل. لكن لم تكن هناك أي إشارة على وجود الأرنب. وظن الذئب أن البومة خدعته وساعدت الأرنب على الهرب، لكنها قالت له إنها لم تخدعه، وجلست وعيناها مفتوحتان على وسعيهما، تحدّق بغباء، وتنوح وتئن وتصدر جلبة غريبة من ألمها. وخيّل إلى الذئب أنها تسخر منه، لأنه لم يكن يفهم معنى صرخات البومة الغريبة، وفي سورة غضبه أخذ يضرب رأسها بفأسه حتى تورّم وتضخم حجمها. وصاحت البومة «هوووت... هوووت... هوووت»، وجحظت عيناها من رأسها الذي تورم أكثر من قبل، ثمّ مضى الذئب في طريقه، عازماً على أن يبتعد عن طريق الأرنب. ومنذ ذلك الحين، تصيح البومة في الليل: «هوووت... هـوووت... هـوووت»، لأنها لا تزال تتذكّر ألمها، ولا يزال رأسها متورّماً، وأصبح أكبر من رؤوس الطيور الأخرى لأن الذئب ضربها بمقبض فأسه، ولا تزال عيناها واسعتين وجاحظتين بغباء، ولا تستطيع أن تنظر إلى الضوء، وتفقد بصرها في أشعة الشمس لأن الأرنب ألقى عصارة التبغ في عينيها. ومنذ تلك الليلة، بدأ الأرنب والذئب يتحاشى أحدهما الآخر، ولم يعودا يعيشان في مكان واحد، ولم يعودا صديقين مطلقاً.

جنية التبغ الآتية من التلال الزرقاء

عاش في قديم الزمان رجل وزوجته وطفلاه الصغيران حياة مريحة على شواطئ بحيرة محاطة بأشجار كبيرة في أعماق الغابة الكندية. وعندما كبر الطفلان، ازدادا وسامة ولطفاً يوماً بعد يوم، إلى أن قالت نساء القبيلة العجائز: «لا يتسع العالم لطيبتهما ووسامتهما، لذلك لا بد أن يكون موطنهما في مكان آخر في الغرب». وقبل أن يبلغا سن الرشد، انتشر وباء الطاعون وساد الأرض وخطف حياة الطفلين بأهواله وويلاته. ثم جاء دور أمّهما التي بدأت تزداد هزالاً، وبدأ جسمها يذوي أمام عيني زوجها الذي لم يكن قادراً على انقاذها.

وظل الرجل وحيداً على الأرض، وتلاشت بهجة حياته برحيل زوجته وطفليه، فعاش وحيداً في حزن شديد. وأضحت الحياة بالنسبة إليه طويلة وكئيبة، مما جعله يتمنى في معظم الأحيان أن يموت. لكنه نهض أخيراً وقال لنفسه: «سأمضي في هذه الحياة وأفعل الخير للناس. ولعلي أتمكن بهذه الطريقة من أن أجد

السكينة والسلام». وبدأ يعمل بجدّ ويفعل الخير بقدر ما أمكنه للناس الأكثر ضعفاً وفقراً في قبيلته، فبات جميع أبناء قريته يكنّون له الاحترام الشديد، وينادونه من باب المودّة «الجدّ»، لأنه أصبح شيخاً طاعناً في السن، وكان بدوره يجد سعادة كبيرة عندما يساعد الآخرين. لكنّه ظلّ وحيداً، وظلّت الأيام والأمسيات تمر طويلة رتيبة، وكلما كبر في السنّ قل عمله، وبات يجد صعوبة في قضاء الوقت لأنه لم يعد يجد ما يفعله سوى الجلوس وحيداً، حالماً بشبابه الذي ولّى وبأصدقائه الذين رحلوا.

وذات يوم جلس غارقاً في التأمل على ضفة البحيرة. ومع أن أناساً كثيرين كان يعيشون حوله في القرية، لكنه آثر الجلوس وحيداً كعادته. وفجأة حلّق سرب كبير من الطيور وبدا مثل غيوم سوداء كبيرة تغطي السماء، قادماً من التلال الزرقاء البعيدة متجهاً نحو شاطئ البحيرة. كانت الطيور تطير في دوائر، وتحلّق طويلاً فوق الأشجار، وتطلق صيحات غريبة، ولم يكن الناس قد رأوا هذه الطيور الكبيرة من قبل، فدبّ الخوف في نفوسهم، وقالوا: «هذه ليست مخلوقات عادية، إنها تنذر بوقوع شيء غريب»، وفجأة رفرف أحد الطيور لحظة وبدأ يهبط ببطء على الأرض بعد أن أصيب بسهم في صدره. لم يكن أحد في القرية قد أطلق

سهاماً على سرب الطيور، ولم يعرف أحد مصدر انطلاق السهم، وقد بث هذا اللغز الرعب في قلوب الناس، وتطلعوا إلى الشيخ يسألونه رأيه، لأنهم يعرفون أنه رجل حكيم.

ورقد الطير الذي سقط وهو يصفق بجناحيه على الأرض، وقد لاح عليه الألم الشديد. وبدأت الطيور الأخرى تحلّق فوقه بشكل دائري لفترة من الوقت، مطلقة صيحات عالية. ثمّ صاحت ونادت إحداها الأخرى وعادت وحلّقت عائدة إلى التلال الزرقاء البعيدة، وتركت الطير الذي سقط على الأرض بعد أن اخترق السهم صدره. ولم يجفل الشيخ من هذا المشهد، وقال: «سأذهب إلى الطير المصاب، فلعلي أستطيع أن أشفي جراحه». إلا أن الناس المذعورين قالوا: «لا تذهب أيها الجدّ، فهذا الطير سيؤذيك». لكن الشيخ أجاب: «إنه لا يستطيع أن يؤذيني، فقد انتهى عملي وأوشكت حياتي على نهايتها، وأضحت سمائي مظلمة لأن الحزن يملؤني، واقتربت من غروب الحياة؛ فأنا وحيد في العالم بعد رحيل أهلي. وما عدت أخشى الموت بل أرحب به كثيراً؟». وتوجه إلى الطير المصاب لكي يرى إن كان بوسعه مساعدته.

وعندما بدأ يسير أظلم دربه فجأة، غير أنه عندما اقترب منه، انطلق من السماء على حين غرة لهب متوهج نحو المكان الذي يرقد فيه الطير، وانبعث وميض من النار. وعندما نظر الشيخ، رأى أن الطير قد احترق تماماً. وعندما وصل إلى المكان الذي يرقد فيه، لم يتبق منه شيء سوى رماد أسود، فنخز الرماد بعصاه، ووجد في وسطه جمرة كبيرة. لكنه عندما نظر إليها، اختفت بلمح البصر، وظهرت في مكانها هيئة صغيرة غريبة تشبه رجلاً صغيراً لا يزيد حجمه عن إبهامه، وقال: «مرحباً أيها الجدّ، لا تضربني لأنني بُعثت إلى هنا لكي أساعدك».

سأله الشيخ: «من أنت؟».

قال الرجل الصغير: «أنا واحد من أفراد الشعب الصغير الذي يعيش في التلال الزرقاء البعيدة». ثمّ عرف الشيخ أنه ليس إلا واحداً من الجنّ الغرباء الآتين من الجبال الذين سمع عنهم كثيراً. وسأله: «ماذا تريد؟».

أجاب: «لقد بُعثت إليك حاملاً هدية ثمينة»؛ فدهش الشيخ كثيراً، لكنّه لم يقل شيئاً.

ثمّ قال جنيّ التلال الزرقاء: «أنت شيخ وحيد، وقد قمت بأعمال نبيلة كثيرة، وأحسنت للآخرين دوماً، لكي تجد السكينة والسلام. وبسبب طيبتك في الحياة، أُرسلت لأجلب لك مزيداً من السعادة والاطمئنان. لقد انتهى عملك، بيد أن حياتك لم تنته بعد، ولا يزال أمامك وقت طويل تقيم فيه على الأرض. يجب أن تعيش فترة الحياة المقدّرة لك. أنت دائم الشوق إلى زوجتك وطفليك الذين رحلوا، ودائم التذكّر لشبابك، وتشعر أن الأيام لا تزال مديدة أمامك وأن وقتك ثقيل، لكني أُرسلت بهدية ستساعدك على قضاء الزمن المتبقي بسعادة أكبر».

ثمّ أعطاه الرجل الصغير قليلاً من البذور الصغيرة وقال: «ازرع هذه البذور في الحال، هنا في الرماد الذي نهضت منه الآن». فنفذ الشيخ ما طُلب منه، وعلى الفور، تبرعمت البذور ونمت منها أوراق ضخمة، وسرعان ما أصبح المكان الذي احترق فيه الطير، حقل تبغ واسعاً.

ثـمّ أعطاه الجني غليوناً كبيراً، وقـال لـه: «جفّف هذه الأوراق وضعها في هذا الغليون ودخّنها، عندها ستكون في غاية السعادة، وعندما لا يكون لديك ما تفعله، فسيساعدك على إمضاء الوقت، وعندما لا يكون برفقتك أحد، فسيكون

رفيقاً لك، وسيجلب لك الكثير من أحلام المستقبل وذكريات الماضي. وعندما يتصاعد الدخان منه بشكل لولبي ستظهر لك رؤى عديدة عن الأشخاص الذين أحببتهم، وسترى وجوههم عبر الدخان وأنت جالس وحدك عند الغروب».

وشكر الشيخ كثيراً الجني على هديته، لكن الرجل الصغير قال: «علّم العجائز الآخرين كيفية استخدامه لكي يستمتعوا به هم أيضاً».

ثمّ اختفى الجني بسرعة، وانطلق نحو التلال الزرقاء البعيدة، ولم يُر ثانية في القرية. وبغليونه وتبغه، عاد الشيخ إلى أحلامه، برضا وسعادة أكبر من قبل، وبهذه الطريقة، جُلب التبغ إلى الهنود في قديم الزمان.

قوس قزح وأوراق الخريف

في قديم الزمان، قبل أن يأتي الهنود الحمر إلى كندا بفترة طويلة، كانت الحيوانات جميعها تتكلم وتتصرف كالبشر. وكانت في كلّ سنة، تعقد اجتماعاً كبيراً بعد انتصاف الصيف وتحضره جميع الحيوانات. وفي إحدى المرات، وقبل انعقاد الاجتماع، أعربت الحيوانات عن رغبتها في أن تذهب إلى السماء لترى كيف تبدو البلاد هناك. ولم يجد أحد منها الوسيلة للذهاب إلى هناك، وكانت السلحفاة أقدم المخلوقات وأكثرها عقلانية على وجه الأرض. وفي أحد الأيام، ناشدت إله الرعد أن يصحبها إلى السماء، وسرعان ما أجيب طلبها، وحدثت جلبة هائلة وكأنّ الأرض قد انشقت إلى شقين، وعندما بحث الناس عن السلحفاة، لم يجدوها في أيّ مكان، وفتّشوا كلّ بقعة على الأرض، لكن من دون جدوى. وذات مساء، عندما نظروا إلى الأعلى، رأوها في السماء وهي تتنقل مثل غيمة سوداء. وكانت السلحفاة قد أحبّت السماء كثيراً، فقرّرت العيش هناك باستمرار

وأن ترسل أحفادها في وقت لاحق إلى الأرض. ووافق شعب السماء على أن تمكث معهم هناك، وسألوها: «أين تريدين أن تسكني؟». فأجابت: «أريد أن أقيم في الغيمة السوداء حيث توجد برك وجداول وبحيرات ومياه الينابيع لأنني كنت في صغري أقيم دائماً بالقرب من هذه الأماكن». وقد أجيبت رغبتها؛ وعندما صار مجلس الحيوانات يعقد اجتماعاته الكبيرة على الأرض أثناء ظهور البدر بتمامه، دأبت السلحفاة على حضور هذه الاجتماعات، لكنّها حرصت على العودة إلى السماء بعد انتهاء كل اجتماع. وكانت الحيوانات الأخرى تحسدها على حظها الجيد، وتتمنى أن تتمكن من الذهاب معها.

وتملك الحيوانات شعور بالحزن والغضب بعد أن أشيع أن نوعاً جديداً من المخلوقات سيأتي من مكان بعيد من المحيط ليسكن أرضها، وناقشت الحيوانات الأمر بدقة، وقالت إنها ستكون محظوظة لو تمكنت من الذهاب إلى السماء مع السلحفاة العجوز، والعيش مثلها، لا يعتريها خوف وتعيش حياة خالية من المشكلات والهموم. لكنّها لم تعرف كيف تذهب إلى هناك، لأن السلحفاة لم تخبر أحداً كيف فعلت ذلك.

وفي أحد الأيام، عندما كان الأيل يتجول كعادته وحيداً في الغابة، صادف قوس قزح الذي يشقّ طريقه غالباً من ألوان مختلفة إلى السماء. وقال لقوس قزح: «احملني إلى حدود السماء لأنني أريد أن أرى السلحفاة»، إلا أن قوس قزح خشي فعل ذلك، لأنه أراد أن يستأذن أولاً إله الرعد، فحاول التملّص من الأيل، وكسباً للوقت قال له: «تعال إليّ في الشتاء، عندما أمكث قليلاً على الجبل بالقرب من البحيرة، وعندها سأحملك بكل سرور إلى المكان الذي تقيم فيه السلحفاة».

وانتظر الأيل قوس قزح بلهفة كبيرة طوال أشهر الشتاء، لكن قوس قزح لم يأت. وبدأت الحياة تزداد صعوبة على الأرض، وأعربت الحيوانات عن خوفها من النوع الجديد الذي سيأتي قريباً إلى أرضها، وكان الأيل خجولاً جداً ولا يطيق صبراً. وذات يوم في بداية فصل الصيف، عاد قوس قزح، فهرع الأيل للقائه وسأله: «لماذا كذبت عليّ؟ لقد انتظرتك طوال الشتاء على الجبل بالقرب من البحيرة، لكنك لم تأت كما وعدت. أريد أن أذهب إلى السماء الآن، لأني أريد رؤية السلحفاة». فأجاب قوس قزح: «لا أستطيع أن آخذك الآن. لكن عندما يغلف الضباب البحيرة سأعود

وأزيله. تعال إليّ آنذاك، وسآخذك معي إلى السماء حيث تقيم السلحفاة، وإني أصدقك القول هذه المرة».

وتشاور قوس قزح مع إله الرعد الذي وافق على تلبية رغبة الأيل. وبعد فترة قصيرة، غلّف ضباب كثيف البحيرة، وخرج الأيل بسرعة منتظراً قوس قزح. وكما هو متوقع، هبط قوس قزح ليزيل الضباب، ورمى قوسه ذا الألوان المتعددة من البحيرة نحو التلال الزرقاء البعيدة، فتلاشى الضباب على الفور، وقال للأيل الذي وقف يراقبه: «سأفي بوعدي الآن. سر في دربي المتعدد الألوان فوق التلال والغابات والجداول ولا تخف، وسرعان ما ستصل إلى بيت السلحفاة في السماء». وفعل الأيل كما طُلب منه، وسرعان ما وصل إلى السماء، فسعدت السلحفاة كثيراً برؤيته، وأحبّ الأيل تلك البلاد كثيراً إلى درجة أنه قرّر أن يمكث فيها طوال حياته، وراح يطوف في أرجاء السماء، متنقلاً كالريح من مكان إلى آخر.

وعندما انتصف الصيف، وظهر البدر، وعقد المجلس الكبير اجتماعه ثانية، غاب الأيل عن الاجتماع للمرة الأولى في حياته، وانتظرته الحيوانات طويلاً لأنها كانت بحاجة إلى استشارته، لكنه لم يأت. وأرسلت الحيوانات الطيور للبحث عنه، فطار

الصقر الأسود، ونقّار الخشب، وطائر أبو زريق للبحث عنه في الغابة، لكنّها لم تعثر على أي أثر له. ثمّ جاب الذئب والثعلب الغابة طولاً وعرضاً، لكنّهما عادا وقالا إنهما لم يعثرا عليه في أي مكان. وأخيراً وصلت السلحفاة إلى اجتماع المجلس الكبير كعادتها، ممتطية غيمتها السوداء التي توجد فيها البرك والبحيرات والجداول وينابيع الماء. فقال الدبّ: «إن الأيل غائب عن اجتماع المجلس. أين هو؟ لا نستطيع أن نعقد الاجتماع من دونه، إننا بحاجة إلى نصيحته»، فأجابت السلحفاة: «إن الأيل في السماء، ألم تسمع بذلك؟ فقد صنع قوس قزح له درباً رائعاً من شتى الألوان وصعد إلى السماء. «إنه هناك»، وأشارت إلى غيمة ذهبية فوقهم في السماء.

ونصحت السلحفاة أن تذهب الحيوانات جميعها لتعيش في السماء حتى تتأكد من أن نوع المخلوقات الجديد لن يلحق بها أي أذى. وأرت السلحفاة الحيوانات الدرب الذي صنعه قوس قزح الممتد من الأرض بألوانه الرائعة. ووافقت الحيوانات جميعها في الاجتماع الكبير على أن تأخذ بنصيحة السلحفاة، لكنّها كانت جميعها غاضبة من الأيل لأنه رحل من دون أن يخبرها، ولأنها كانت ترى أنه يجب أن تبقى جميع الحيوانات

مع بعضها، وأن تكون مخلصة ووفية لبعضها بعض على الأرض، أو أن تذهب جميعها إلى السماء. وأبدى الدبّ أشد الغضب والانزعاج، وبسبب قوّته الهائلة، لم يكن يخشى النوع الجديد الذي أشيع بأنه سيأتي إلى الأرض قريباً، وكان ينحو دائماً لأن ينظر بازدراء إلى أساليب الأيل الخجولة، وقال: «لقد تركنا الأيل. لقد تخلى عنا في الساعة التي نتعرض فيها للخطر، وهذا مخالف لقوانين الغابة ولقانوننا في الدفاع عن أنفسنا»، ثم قال في نفسه: «سأعاقبه على عمله هذا عندما يحين الوقت».

وفي أواخر الخريف، حان الوقت المتفق عليه لكي تغادر الحيوانات الأرض، وشق قوس قزح دربه الملوّن لكي تصعد جميعها إلى السماء، وكان الدبّ أول من سيصعد لأنه زعيمها، وبوزنه الثقيل أراد أن يختبر متانة الجسر ذي الألوان المشعة الذي سيصعدون بواسطته إلى السماء. وما كاد يصل إلى السماء، حتى التقى الأيل الذي كان ينتظر ليستقبل الحيوانات ويرحب بها في وطنها الجديد. فقال له غاضباً: «لماذا غادرتنا إلى أرض السلحفاة من دون أن تخبرنا؟ لماذا لم تحضر الاجتماع الكبير؟ لماذا لم تنتظر حتى تتمكن جميع الحيوانات من الصعود جميعها؟ لقد خنت رفاقك، ولم تكن وفياً لقوانيننا». فأجاب

الأيل بغضب أيضاً: «ومن أنت حتى تشكك بنزاهتي؟ لا يمكن لأحد إلا الذئب أن يسألني لماذا جئت إلى هنا، أو أن يشكك بإخلاصي، لسوف سأقتلك على صفاقتك هذه». فقد أصبح لدى الأيل كبرياء شديدة منذ أن جاء للعيش في السماء، ولم يعد خجولاً كما كان على الأرض. والتمعت عيناه غضباً، وأحنى رقبته وخفض رأسه ذات القرون، واندفع بجنون نحو الدبّ لكي يرميه عن حافة الدرب.

لكن الدبّ لم يخف لأنه كان قد جرّب قوّته في أحيان كثيرة مع الأيل على الأرض. وعلا هدير صوته الأجشّ الواطئ في أرجاء السماء، وتهيأ للقتال. التحم أحدهما بالآخر، وتقاتلا طويلاً، حتى بدأ جسر الألوان المشعة يهتز، بل إن أركان السماء اهتزت من ضراوة قتالهما. رفعت الحيوانات التي كانت تنتظر على جانب البحيرة في نهاية الدرب، عيونها إلى الأعلى ورأت معركة تدور فوقها، وخشيت من عواقب هذه المعركة، لأنها لم تكن تريد أن يموت الدبّ أو الأيل، لذلك أرسلت الذئب إلى السماء ليضع حداً لهذه المعركة. وعندما وصل الذئب إلى المتصارعين، كان الدبّ ينزف الكثير من الدم، لأن الأيل أحدث ثقباً بقرونه في رقبته وخاصرته. وكان الأيل ينزف أيضاً لأن مخالب الدبّ

القوية أحدثت في رأسه جرحاً كبيراً. وسرعان ما أوقف الذئب المعركة، وذهب الدبّ والأيل لتضميد جروحهما. ثمّ صعدت الحيوانات الأخرى إلى السماء بواسطة قوس قزح المشعّ، وقرّرت العيش في السماء، وأن تعيد أحفادها إلى الأرض عندما يصل إليها نوع المخلوقات الجديد. ولا يزال بالإمكان رؤيتها في بعض الأحيان، مثل الغيوم وهي تسير مسرعة في السماء، في أشكالها التي كانت عليها على الأرض.

لكن الدم الذي سال من الدبّ والأيل عندما صعدا إلى السماء، ودارت بينهما المعركة على طريق قوس قزح، سقطت منه قطرات على أوراق الأشجار وحوّلتها إلى ألوان مختلفة. وفي كلّ سنة، عندما يأتي الخريف إلى البلاد الشمالية، تتخذ الأوراق مرة أخرى الألوان البراقة والمدهشة التي منحتها لها قطرات دم الدبّ والأيل عندما تقاتلا فوق درب قوس قزح منذ عهود سحيقة. ولم يعد الدبّ والأيل صديقين منذ ذلك الحين، ولم يعد أحفادهما يعيشون معاً في سلام، كما كانوا في غابر الأيام.

الأرنب ورجل القمر

في قديم الزمان، عاش الأرنب مع جدته العجوز في أعماق الغابة الكندية، بعيداً عن جميع الناس الآخرين. وكان صيّاداً عظيماً، ينصب الفخاخ في جميع الأماكن، القريبة منها والبعيدة، ويضع شراكاً لصيد الحيوانات ليحصل على طعامه. كان الفصل شتاء، وكان يصطاد الكثير من الحيوانات والطيور الصغيرة، ويجلبها إلى البيت كل يوم ليأكل هو وجدته العجوز، وقد غمرته السعادة بنجاحه. لكن بعد مرور بضعة أسابيع، لم يعد يتمكن من اصطياد شيء وصار يجد أفخاخه ومصائده فارغة على الدوام، رغم رؤيته آثار أقدام كثيرة حولها، والتي تدلّ على أن الحيوانات مرت من حولها، وعندها عرف أن ثمة لصاً يسرق صيده ليلاً.

كان البرد شديداً والثلج عميقاً في الغابة، واحتاج الأرنب وجدته العجوز إلى الطعام. ولكن كلما أفاق في الصباح الباكر وهرع ليرى الفخاخ التي نصبها، يجدها دوماً خاوية، لأن اللصّ قد سبقه إليها. وانتابته الحيرة، لأنه لم يستطع أن يعرف هوية هذا اللصّ.

وأخيراً، وفي صبيحة أحد الأيام، وبعد أن هطل الثلج ثانية، وجد آثار قدم طويلة بالقرب من الفخاخ التي نصبها، وعرف أنها قدم السارق. وكانت آثار أطول قدم رآها في حياته، طويلة وضيّقة ومشعة مثل شعاع القمر. فقال الأرنب: «سأستيقظ في الصباح الباكر وأذهب إلى الفخاخ التي نصبتها قبل أن يأتي اللصّ ويسرق ما اصطدته، وبذلك تكون فارغة جميعها عندما يأتي». وأصبح ينهض باكراً في الصباح آملاً أن يقبض على اللصّ، لكن الرجل ذا القدم الطويلة ظلّ يسبقه على الدوام. ومهما بكّر الأرنب في القدوم، ظل السارق يسبقه، وظل هو يجد فخاخه فارغة.

لذلك قال الأرنب لجدته العجوز: «إن الرجل ذا القدم الطويلة الذي يسرق الفخاخ التي أنصبها، يأتي قبلي دائماً، مهما بكّرت في الاستيقاظ. سأصنع فخّاً من وتر القوس، وسأراقبه طوال الليل، ومن المؤكد أنني سأقبض عليه». وهكذا صنع فخّاً من وتر القوس ووضعه بالقرب من فخاخه، ومدّ طرف وتر القوس إلى بقعة تكسوها الأشجار واختبأ وراءها. كان يأمل أن يدوس السارق فوق الفخّ، فيسحب وتر القوس ويربطه بالشجرة بسرعة. جلس بهدوء شديد منتظراً ظهور الرجل ذي

القدم الطويلة. عندما انطلق كان ضوء القمر مضيئاً، إلا أنه سرعان ما حل ظلام دامس غلّف الغابة، واختفى القمر فجأة، لكن النجوم ظلت تسطع فوق الثلج الأبيض، وخلت السماء من الغيوم، فتساءل الأرنب عما حدث للقمر. لبث ينتظر بهدوء يعتريه شيء من الخوف في الظلام الذي يتخلله ضوء النجوم.

وسرعان ما تناهى إلى سمعه صوت أحد يقترب، متسللاً خلسة بين الأشجار، ثمّ رأى ضوءاً أبيض بهر عينيه. اتجه الضوء نحو الفخاخ حتى توقّف عند الفخّ الذي نصبه الأرنب. ثمّ شدّ الأرنب وتر القوس، وأغلق الفخّ كما كان يريد، وربط الوتر بسرعة بالشجرة. سمع صوت عراك، ورأى الضوء الأبيض يتحرك من جهة إلى أخرى، لكنّه عرف أنه ربط سجينه بسرعة، وأنه أمسك الرجل ذا القدم الطويلة أخيراً. أخافه الضوء الأبيض كثيراً، وراح يجري إلى البيت بأسرع ما يستطيع، وأخبر جدته العجوز بأنّ السارق وقع في الفخّ، وقال لها إنه لا يعرف من هو، ولم يستطع أن ينظر إليه من شدة خوفه، فقالت جدته: «يجب أن تعود وترى من هو، واطلب منه أن يتوقف عن سرقة فخاخك»، لكن الأرنب قال: «لا أريد أن أعود إلا عندما يطلع النهار، لأن القمر غاب وحلّ ظلام شديد في الغابة». لكن جدته قالت:

«يجب أن تذهب الآن». ورغم خوف الأرنب المسكين مما رآه، فقد مضى عائداً إلى ذاك المكان.

عندما اقترب من الفخاخ رأى الضوء الأبيض ما زال مضاء. بل كان يلمع إلى درجة بهرت عينيه، فاضطر لأن يقف في مكان بعيداً عنه. ثمّ أخذ يقترب، لكن عينيه بدأتا تؤلمانه. كان ثمة جدول يتدفّق من جانبه، فغسّل عينيه بالماء البارد، لكنّه لم يشعر بالارتياح، واحمرّت عيناه وأصبحتا حارتين، وبدأت الدموع تنهمر منهما بسبب الضوء الباهر، ثمّ أخذ حفنات كبيرة من الثلج ورمى كرات الثلج إلى الضوء، راجياً أن يتمكن من إطفائه.

وعندما اقتربت كرات الثلج من الضوء، ذابت وبدأت تتساقط كالمطر. وبينما تؤلمه عيناه، بدأ الأرنب وهو في سورة غضبه يجمع حفنات كبيرة من الطين الأسود الناعم من قاع الجدول، ويشكّلها في كرات، ويرميها بكلّ قوته نحو الضوء الأبيض، ويسمعها ترتطم محدثة صوتاً مكتوماً، وسمع صرخات عالية من السجين – ذلك الرجل ذو القدم الطويلة القابع وراء الضوء اللامع. ثمّ جاء صوت من ناحية الضوء، وقال: «لماذا أسرتني؟ تعال وفك وثاقي حالاً. أنا الرجل الآتي من القمر. لقد اقترب وقت انبلاج الصبح، ويجب أن أعود إلى البيت قبل

بزوغ الفجر. لقد رميت وجهي بالطين، وإذا لم تطلقني فوراً فسأقتل جميع أفراد قبيلتك».

اشتد خوف الأرنب المسكين، وجرى إلى البيت وأخبر جدته العجوز بما حدث. خافت جدته أيضاً، وقالت إنه لن يأتي خير من وراء ذلك، وطلبت من الأرنب أن يعود فوراً ويحلّ وثاق رجل القمر، لأن الليل كاد أن ينقضي، وسرعان ما سيبزغ الفجر. فعاد الأرنب المسكين وهو يرتعش خوفاً، إلى الفخاخ التي نصبها، وصاح من بعيد: «سأحلّ وثاقك إذا لم تعد تسرق الفخاخ التي أنصبها، وإذا لم تعد إلى الأرض أبداً»، فوعده السجين قائلاً: «أقسم على ذلك بضوئي الأبيض». ثمّ اقترب الأرنب بحرص شديد. واضطر إلى أن يغمض عينيه، وراح يتلمّس طريقه في الضوء المبهر، وارتعشت شفته بسبب ارتفاع الحرارة، وأخيراً هرع وقطع الفخّ المصنوع من وتر القوس بأسنانه، وانطلق بسرعة نحو رجل القمر لأنه رأى الفجر في الشرق. لكن الأرنب كاد يصاب بالعمى، واحترق كتفاه حرقاً شديداً. ومنذ ذلك الحين، بدأ الأرنب يغمض عينيه ويفتحهما بسرعة، وأصبح جفناه ورديين، وبدأت الماء تسيل من عينيه عندما ينظر إلى الضوء اللامع، ولم تتوقف شفته عن الارتجاف، وأصبح كتفاه صفراوين،

حتّى وهو يرتدي معطفه الشتويّ الأبيض بسبب الضوء المبهر والحرارة الشديدة في تلك الليلة الشتوية منذ أمد بعيد، عندما فكّ قيد الرجل القادم من القمر وأطلقه من الفخّ. ومنذ تلك الليلة، لم يعد الرجل القادم من القمر إلى الأرض، وظلّ يؤدي مهامه في السماء، ويضيء الغابة في الليل، لكنّ علامات الطين الأسود الذي ألقاه عليه الأرنب لا تزال بادية على وجهه. وفي بعض الأحيان، كان يذهب وينزوي في مكان هادئ لبضع ليال ويحاول أن يزيل آثار الطين، عندها تظلم الأرض، لكنّه لم يتمكن من إزالة الطين، لذلك عندما يعود إلى عمله، لا تزال علامات كرات الطين التي ألقاها الأرنب عليه بادية على وجهه المشرق.

الطفلان ذوا العين الواحدة

عاش في قديم الزمان، طفلان صغيران، فتى وفتاة، مع أمّهما الأرملة في الغابة الكندية. وكانت المرأة فقيرة جداً، لأن زوجها قد توفي منذ فترة طويلة، وباتت مضطرة إلى أن تعمل بجدّ لتوفر لها ولطفليها الطعام، فتخرج من البيت لفترات طويلة تصطاد خلالها السمك والحيوانات، وتغيب أحياناً أياماً عدة، تاركة طفليها في البيت وحدهما، لذلك كبرا من دون أن يحظيا بالكثير من الإشراف أو الرعاية أو التأديب، فأصبحا عنيدين جموحين يصعب ضبطهما بسبب بقائهما وحدهما في معظم الأحيان يفعلان ما يحلو لهما. وعندما كانت أمّهما تعود من رحلات صيدها، لم يكونا يطيعان أوامرها، ويفعلان ما يحلو لهما؛ وكلما كبرا، ازدادا عناداً وتمرداً، ولم يكن بوسع أمّهما أن تفعل الكثير لكي تتمكن من السيطرة عليهما، فقالت لهما: «ستعانيان كثيراً ذات يوم جزاء سوء سلوككما».

وفي أحد الأيام ذهبت المرأة لزيارة إحدى جاراتها القريبات، وتركت في القِدر كمية كبيرة من دهن الدبّ تغلي على النار، وقالت للطفلين: «لا تعبثا بالقِدر عندما أذهب، لأن الدهن سيؤذيكما إذا اشتعلت فيه النار». لكنّها لم تكد تبتعد كثيراً حتى قال الفتى للفتاة وهما يلعبان حول القِدر: «دعينا نتأكد إن كان الدهن سيحترق». وهكذا، أخذا عصا خشبية مشتعلة وألقيا بها في الدهن، ووقفا ينظران داخل القِدر الكبيرة لرؤية ماذا يمكن أن يحدث. أخذ الدهن يبقبق للحظة، ثمّ حدث وميض مفاجئ، وانطلق لسان من اللهب من القِدر وأصاب وجهي الطفلين، فاحترق شعرهما ووجهاهما، وخرجا من البيت يجريان وهما يصيحان من الألم، ليكتشفا أنهما لا يستطيعان أن يريا لأن النار أعمت عينيهما، فراحا يتعثّران في الظلام، ويصيحان طلباً للمساعدة، لكن لم يهرع أحد لمساعدتهما.

وعندما عادت أمّهما إلى البيت، جرّبت معهما جميع أنواع العلاجات التي تظن أنها ستعيد لهما بصرهما، لكن جميعها باءت بالفشل، وقالت: «لقد فقدتما بصركما طوال حياتكما، وهذا هو العقاب على عصيانكما». وهكذا عاش الطفلان في

الظلام لفترة طويلة، لكنّهما لم يعودا طفلين عنيدين جامحين، وما عادا يتسببان بالمشكلات لأمهما أو يرفضان لها أي طلب تطلبه منهما.

وفي أحد الأيام، عندما خرجت أمّهما إلى مكان بعيد في الغابة للصيد، جاءت عجوز وطلبت من الطفلين أن يقدما لها قليلاً من الطعام، فأحضرا لها وجبة جيدة من الطعام وجلست أمام الباب. وبعد أن أكلت، قالت: «إنكما فاقدا البصر، لكنّي أستطيع أن أساعدكما لأنني جئت من أرض الشعب الصغير، ولا يمكنني أن أعطيكما أربع عيون، لكنّي ساعطيكما عيناً واحدة تتقاسمانها، وسيصبح بإمكان كل منكما أن يستخدمها في أوقات مختلفة، وستكون أفضل من أن لا تبصرا أبداً. لكن عليكما أن تحافظا عليها وألا تلقياها أرضاً». ثمّ أخرجت من جيبها عيناً وقدمتها لهما واختفت. وهكذا أخذا يتقاسمان العين الواحدة، وعندما تكون العين مع الفتى وتريد الفتاة أن ترى شيئاً، كانت تقول له: «أعطني العين قليلاً»، فيناولها أخوها العين بحرص شديد. وعندما عادت أمّهما إلى البيت، غمرتها السعادة عندما وجدت أنه أصبح لديهما ما يمكنهما من الرؤية مجدداً.

وذات يوم عندما كانت أمّهما خارج البيت، ذهب الفتى إلى الغابة يحمل قوسه وسهامه، وكانت العين معه، ولم يمض مسافة بعيدة حتى رأى أيلاً صغيراً سميناً، فقتله. كان الأيل ثقيلاً جداً ولم يتمكن من حمله إلى البيت وحده، لذلك قال في نفسه: «سأذهب إلى البيت لأحضر أختي، وسنقطّعه ونضعه في سلة ونحمله إلى البيت معاً». ذهب إلى البيت وأخبر أخته بما اصطاده، وقادها إلى المكان الذي يرقد فيه الأيّل، وأخذا يقطّعان الأيل، لكنهما نسيا أن يحضرا سلة أو كيساً معهما. فقال لأخته: «يجب أن تصنعي سلة لكي نضع فيها اللحم لنحمله إلى البيت»، فقالت أخته: «كيف يمكنني أن أصنع سلة وأنا لا أستطيع أن أرى؟ فإذا كان عليّ أن أحيك سلة، يجب أن تعطيني العين». فأعطاها الفتى العين، وصنعت سلة كبيرة من الأغصان الصغيرة الخضراء.

وعندما انتهت من صنع السلة، قال لها الفتى: «يجب أن أنهي تقطيع اللحم، أعطيني العين»، فأعطته العين، ومضى يقطع اللحم ويضعه في السلة، ثمّ قال: «لماذا لا نعدّ وجبة طعام هنا؟ إني جائع جداً». فوافقت أخته وقالت إنها فكرة جيّدة، وقال لها: «حضري لنا الطعام بينما أنهي تقطيع اللحم»؛ فأشعلت الفتاة النار، لكنّها خشيت أن تحرق اللحم، فقالت: «لا أستطيع

أن أرى كي أطهي الطعام. أعطني العين». وعندما انتهى أخوها من وضع اللحم في السلة، أعطاها العين، فواصلت الطهي. كانت النار واطئة وقالت: «أحتاج إلى حطب جاف. اجلب لي قليلاً من حطب الصنوبر الجاف». ابتعد الفتى في الغابة يبحث عن الحطب، لكنه ما إن قطع مسافة حتى تعثّر بجذع شجرة وسقط على الأرض، ونادى أخته بغضب وقال: «إنك تريدين أن تحصلي على العين دائماً. كيف يمكنني أن أجمع الحطب الجاف وأنا لا أستطيع أن أرى؟ أعطني العين في الحال».

جرت أخته إليه وساعدته على النهوض وأعطته العين. ثم تمكنت من العثور على طريقها عندما عادت إلى النار، غير أنها عندما وصلت إليها، شمّت رائحة اللحم يحترق على السيخ، فصاحت: «إن اللحم يحترق وسيفسد عشاؤنا. أعطني العين في الحال لأرى إن كان اللحم قد استوى جيداً». كان الفتى يقف بعيداً عنها قليلاً، وفي سورة غضبه ألقى إليها العين وقال: «هيا ابحثي عنها، فلن آتي وأعطيها لك إن كنت كسولة إلى درجة أنك لا تأتين لتأخذينها»، فسقطت العين على الأرض في بقعة بينهما، ولم يعرف أحد منهما مكانها، وراحا يفتشان عنها ويتلمّسانها بين أوراق الأشجار الميّتة، لكن بينما يبحثان عنها، انقضّ فجأة

طائر نقّار الخشب، الذي كان يراقبهما من فوق غصن شجرة قريبة، وابتلعها وعاد وحلّق مبتعداً.

وبينما يفتشان عنها، جاءت العجوز التي أعطتهما العين والتي كانت مختبئة بين الأشجار، ورأت طائر نقار الخشب يطير مبتعداً بالهدية التي كانت قد أعطتها لهما، وقالت: «أين العين التي أعطيتكما إياها؟». فأجاب الفتى: «لقد سقطت من رأسي، ولم أجدها في العشب»؛ وقالت الفتاة: «نعم، لقد سقطت من رأسه، ولا نستطيع أن نجدها»، فقالت العجوز: لقد كذبتما عليّ، وعصيتما أوامري، لذلك فإني سأعاقبكما». وبقوّتها السحرية حوّلت الفتى إلى خلد الحقل، وحوّلت الفتاة إلى طائر خفاش، وقالت لهما: «الآن، عيشا دون أن تريا شيئاً، ولن يوجهكما إلا إحساسكما بالصوت»، وفي الحال تحوّل الفتى والفتاة. وهكذا ظهر خلد الحقل والخفاش على الأرض.

العملاق ذو الريش الرمادي

في قديم الزمان، عندما كان الهنود من قبيلة «بلاكفوت» يعيشون في السهول الكندية، حدثت مجاعة كبيرة في الأرض كلّها. ولم تُذبح الجواميس لأشهر عديدة، ولم يعد هناك لحم يمكن الحصول عليه بأي ثمن، وبدأ المسنون والأطفال الصغار يموتون الواحد تلو الآخر لعدم توافر الطعام، وساد حزن عظيم في كل مكان. ولم يبق على قيد الحياة إلا النساء القويات والمحاربون الأشداء، لكن حتى هؤلاء، ازدادوا ضعفاً وهزالاً بسبب الجوع الذي عمّ الأرض. وأخيراً تضرع رئيس القبيلة إلى زعيم الهنود العظيم لكي يأتي إلى أرضه ويخبرهم ماذا يمكنهم أن يفعلوا لإنقاذ أنفسهم.

في ذلك الوقت، كان الزعيم العظيم يعيش في البلاد الجنوبية حيث تهب الرياح الدافئة وتتفتح الأزهار، وفي إحدى الليالي، سمع الزعيم الدعاء الذي حملته له الريح، فأسرع صوب الشمال، لأنه عرف أن قومه الذي يعيش في السهول يتعرضون لمحنة

شديدة. ووصل بسرعة إلى القرية التي تعيش فيها القبيلة الجائعة، وسأل: «من دعاني إلى هنا؟». فأجاب زعيم القبيلة: «أنا، إن شعبي كلّه يتضوّر جوعاً لأنه لم تعد توجد جواميس في البلاد، وإذا لم تهرع إلى نجدتنا فسنهلك جميعنا». ثمّ نظر الزعيم العظيم إلى شعبه ولاحظ أن العجائز والأطفال الصغار قد اختفوا، ولم يبق سوى قلة من الأطفال الذين غارت عيونهم وخدودهم، ورثا لحالهم وقال: «هناك سارق كبير يعيش في مكان لا يبعد كثيراً عن هنا. ربما كان عملاقاً شرّيراً، وقد ساق جميع الجواميس إلى مكان بعيد، لكنّي سأعثر عليه، وسيتوفر لكم الطعام قريباً»، فارتاح الناس لأنهم يعرفون أنّ الزعيم العظيم يفي بعهده.

أخذ الزعيم ابنه الصغير معه وانطلقا في عملية البحث. وأراد الناس مرافقتهما، لكنّه قال: «لا! سنذهب وحدنا. إنها مهمة محفوفة بالمخاطر، ومن الأفضل أن يموت اثنان، إذا دعت الحاجة في هذه المحاولة، على أن يهلك الجميع». وانطلقا غرباً عبر البراري نحو المياه العظيمة في الغرب. وعندما انطلقا، بدأ الشاب يتضرع إلى الشمس والقمر ونجم الصباح بأن تمدهما بالنجاح. وسرعان ما وصلا إلى سفح التلال المكسوة بالأعشاب الجميلة وأشجار الصنوبر الصغيرة. لكنهما مع ذلك لم يشاهدا

أي دلائل تشير إلى وجود الجواميس. وعندما وصلا أخيراً إلى جدول ضيّق، رأيا على ضفته منزلاً يتصاعد من مدخنته الدخان. قال الزعيم: «هناك تكمن جميع مشكلاتنا، إذ يقيم في ذلك المنزل سارق الجواميس العملاق وزوجته، وهما اللذان ساقا جميع الحيوانات من البراري. تقول لي قوّتي السحرية إن هذا ما حدث»، وبقوّته السحرية حوّل مرافقه وجعله في هيئة عصا مستقيمة مدبّبة حادّة، وجعل نفسه في هيئة كلب، وانبطحا على الأرض وراحا ينتظران.

وبعد قليل خرج العملاق وزوجته وابنهما الصغير. ربتّ الفتى رأس الكلب، وقال: «انظر، لقد وجدت كلباً لطيفاً. لابد من أنه كلب شارد، أيمكنني أن آخذه معي إلى البيت؟». فقال أبوه: «إن شكله لا يعجبني، لا تلمسه»؛ فأجهش الفتى في البكاء لأنه أراد امتلاك كلب منذ زمن بعيد، وتوسلت الأم إلى الأب ليوافق على طلب ابنهما حتى وافق الأب العملاق أخيراً، وقال: «حسناً خذه، لكني أعرف أنه لن يجلب لنا أي خير»، والتقطت المرأة العصا، وقالت: «سآخذ هذه العصا المستقيمة الجميلة معي. يمكنني أن أحفر بها وأستخرج الجذور من الأرض لأصنع منها الدواء»، وذهبوا جميعهم إلى بيت العملاق، وكان

العملاق متجهماً غاضباً، لأن المرأة كانت تحمل العصا، والفتى يقود الكلب.

وفي صباح اليوم التالي، خرج العملاق ثم عاد برفقة جاموس صغير سمين، مسلوخ ومعدّ للطهي. ثم وضعوه في سيخ وشووه على النار وتناولوا وجبة طعام دسمة. أطعم الفتى الكلب قليلاً من اللحم، لكن عندما رأى أبوه الفتى يفعل ذلك، أخذ يضربه بقسوة ويقول: «ألم أقل لك إن الكلب شرّير؟ يجب أن تسمع ما أقوله لك وألا تعصي أمري»، لكن المرأة توسلت إليه ثانية من أجل ابنها، فأطعم الكلب. في تلك الليلة، عندما كان العالم كله نائماً، عاد الكلب والعصا إلى شكلهما البشري، وتناولا عشاء من لحم الجاموس المتبقي، ثم قال الزعيم للفتى إن العملاق هو سارق الجواميس الذي يمنع القطعان من المجيء إلى البراري، ولن نستفيد من قتله إلا بعد أن نعثر على المكان الذي خبأ فيه الجواميس»، ثم غيّرا شكلهما إلى هيئة كلب وعصا وأخلدا إلى النوم.

في صباح اليوم التالي، انطلقت المرأة وابنها إلى الغابة بالقرب من الجبل ليجمعا نبات التوت ويستخرجا الجذور الطبية، وأخذا الكلب والعصا معهما. وعند الظهر، بعد أن عملا فترة

من الوقت، جلسا لتناول طعام الغداء. وألقت المرأة العصا على الأرض، وترك الفتى الكلب يجري بين الشجيرات على مقربة من الجبل، فاكتشف فتحة تشبه فم مغارة. وعندما حدّق داخل المغارة رأى في داخلها جواميس كثيرة، وعندها عرف أنه عثر أخيراً على مخبأ العملاق السارق، ثم عاد إلى المرأة والفتى وراح ينبح. كانت تلك هي الإشارة التي اتفق عليها مع مرافقه. وخيّل للمرأة وابنها أنه ينبح على طير، وراحا يضحكان لأنه أخذ يثب ويقفز من حولهما. لكنّه كان في حقيقة الأمر ينادي رفيقه. فهمت العصا نداءه، وتلوّت مثل أفعى تحت شجيرة بجانب الكلب في غفلة عن الفتى وأمه، ثمّ دخلا إلى المغارة الكبيرة القابعة إلى جانب الجبل، حيث وجدا قطيعاً كبيراً من الجواميس التي اقتادها العملاق من البراري، وأخذ الكلب ينبح عليها ويعض عند حوافرها، والعصا تضربها ليخرجا الجواميس بسرعة من المغارة وتجري شرقاً باتجاه السهول. لكنّهما احتفظا بهيئة الكلب والعصا. وعندما حلّ المساء، وحان موعد عودة الفتى وأمّه إلى البيت، أخذ الفتى يبحث عن الكلب والمرأة تبحث عن عصاها، لكنّهما لم يجداهما، فذهبا إلى البيت بدونهما.

عندما وصلت المرأة وابنها إلى منزلهما على ضفّة النهر، كان العملاق السارق في طريق عودته إلى البيت، وصادف أنه كان ينظر شرقاً فرأى من بعيد الجواميس تجري نحو التلال المكسوة بالأعشا. فتملكّه غضب شديد، ونادى ابنه بصوت مرتفع: «أين الكلب؟ أين الكلب؟». فقال الفتى: «لقد أضعته عند الأجمة عندما كان يطارد طيراً ولم يعد»، فقال العملاق: «إنه لا يطارد طيراً، بل يطارد جواميسي. لقد قلت لك إنه شرّير وحذرتك من أن تلمسه، لكنك نفذت أنت وأمّك ما تريدان. لقد خسرنا الآن جميع الجواميس»، وصرّ أسنانه في غضب شديد، واندفع إلى المغارة المخفية ليعرف كم عدد الجواميس التي بقيت في المغارة، وهو يصيح: «سأقتل الكلب إذا وجدته». وعندما وصل إلى المغارة، كان الزعيم والفتى ما زالا في هيئة كلب وعصا، يدفعان ما تبقى من جواميس. واندفع العملاق نحوهما ليقتل الكلب وليكسر العصا، لكنّهما وثبا فوق جاموس خرم واختبآ في شعره الطويل، وتمسكا به بقوة، وعضّ الكلب الجاموس الهرم فبدأ يخور بقوة ويجري بسرعة خارج المغارة، حاملاً على ظهره الزعيم والفتى، وراح يجري بسرعة صوب الشرق حتى لحق بالقطيع في البراري، وابتعد كثيراً عن العملاق الذي استشاط غضباً. ثمّ استعاد

الزعيم والفتى الشجاع هيئتهما السابقة وأصبحا في هيئة بشر، وبشجاعة كبيرة أرجعا قطيع الجواميس إلى بني قومهما الجائعين الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر في السهول.

وغمرت الناس السعادة عندما شاهدوا الزعيم العظيم والفتى عائدين إلى القرية يقودان قطيع الجواميس السمينة، لأنهم أدركوا أن المجاعة قد انتهت. وعندما دفعا الحيوانات داخل حظيرة مسيجة كبيرة، أخذ طير رمادي كبير يحلّق فوق رؤوسهم، وانقضّ فوق الجواميس وراح ينقرها بمنقاره، محاولاً أن يخيفها لإبعادها. وعرف الزعيم العظيم بقوّته السحرية أن الطير الرمادي ما هو إلا السارق العملاق الذي اتخذ هيئة طير وراح يحلّق في البراري بحثاً عنهما. ثمّ غيّر الزعيم هيئته ليصبح في هيئة كلب ماء ورقد على ضفة الجدول، متظاهراً بالموت، فانقض الطير الرمادي عليه، ظناً منه أنه سيتناول وجبة جيدة من لحم كلب الماء المكتنز، لكن الزعيم أمسكه من ساقه، وعاد إلى هيئته السابقة، وحمله منتصراً إلى معسكره. ثم قيّده بقوة بفتحة المدخنة في خيمته، وأوقد ناراً كبيرة في داخلها، وراح العملاق يصيح: «أنقذني، أنقذني، فلن أسيء إليك مرة أخرى»، لكن الزعيم أبقاه فوق عمود الخيمة طوال الليل، في حين ينبعث دخان النار الأسود من حوله، وفي

الصباح أصبح ريشه كلّه أسود، ثم أنزله الزعيم وقال له: «يمكنك أن تذهب الآن، لكنّك لن تستعيد هيئتك السابقة. وستصبح من الآن وصاعداً غراباً، طائراً سيء الطالع على الأرض، خارجاً عن القانون، وقاطع طريق بين الطيور، مُحتقراً من قبل البشر بسبب سرقاتك، وستسرق دائماً، وستبحث عن غذائك كثيراً». وحتى يومنا هذا، لا يزال ريش الغراب أسود، وهو طير سيء الطالع على الأرض بسبب صراعه مع الزعيم العظيم منذ أمد بعيد.

زوجة الأبّ القاسية

في قديم الزمان، عندما كان الهنود من قبيلة «بلاكفوت» يقيمون في البراري الكندية، عاش هندي فقير يعيش مع طفليه، فتى وفتاة، بالقرب من ضفّة نهر كبير. وكان قد مضى زمن طويل على وفاة أمّ الطفلين، فتولى أبوهما رعايتهما. وقال أبوهما إنه ليس من الملائم أن يكبر الطفلان دون أن تحيطهما امرأة بالرعاية والحنان، لذلك قرّر أن يتزوج ثانية، وسافر إلى قرية بعيدة، وتزوّج هناك امرأة غريبة الأطوار من قبيلة أخرى. وبعد فترة ساءت الأحوال في البلاد الشمالية، وأصبح من المتعذر الحصول على الغذاء، وعاشت الأسرة لعدة أيام تقتات على الجذور والتوت، وعانت الجوع لعدم توافر اللحم. وتصادف أن المرأة التي تزوّجها الرجل، كانت ساحرة شرّيرة، تستطيع القيام بأعمال شرّيرة كثيرة؛ ولم تكن تحب ولدي زوجها، وتعاملهم بقسوة شديدة، وتنحي عليهم باللائمة لعدم توافر الطعام في البيت، وتضربهم بشدة قائلة: «أيها الطفلان النهمان، إنكما

تأكلان كثيراً، ولا عجب أننا لا نستطيع أن نوّفر الطعام في البيت». ورأى الرجل كيف تعامل زوجته الطفلين بفظاظة؛ ومع أن ذلك كان يحزنه، ويغضبه أحياناً، لم يكن يتدخل لأنه يقول إن المرأة هي التي يجب أن تحكم بيتها.

وفي إحدى الليالي في أوائل الربيع، وحين غطّ الرجل في النوم، ظهرت له زوجته الأولى في الحلم، وقالت له: «علّق شبكة عنكبوت كبيرة فوق آثار أقدام الحيوانات في الغابة وعندها ستحصل على طعام وفير، لكن كن طيباً مع طفليّ، وزوجة أبيهما القاسية تزمع قتلهما»، وأعلمته أين يمكن أن يبحث عن شبكة العنكبوت السحرية. وفي اليوم التالي، وجد الرجل شبكة العنكبوت الكبيرة، وتوّجه إلى مكان بعيد في الغابة وعلّقها من الأشجار فوق آثار أقدام الحيوانات. وعندما عاد في ذلك المساء ليرى الشبكة، وجد عدة حيوانات قد علقت في الشبكة لأنها تمتلك قوّة سحرية، فقتل الحيوانات التي علقت فيها، وجلبها إلى البيت. وفي تلك الليلة، تناولوا عشاء دسماً من لحم الأيل المشوي. ويوماً بعد يوم، كانت شبكة العنكبوت السحرية تمنحه أعداداً كبيرة من الأرانب والأيائل، كما قالت له زوجته الميتة عندما رآها في المنام في تلك الليلة، ومنذ ذلك الحين، ما عادوا يفتقرون إلى الطعام.

لكن نجاح الرجل في اصطياد الحيوانات أثار حنق زوجته الساحرة التي لم يعد لديها سبب الآن لتتذمر من الطفلين الصغيرين، ولم تعد تستطيع أن توبخهما وأن تعيّرهما بأنهما السبب في عدم توافر الطعام. وازدادت كراهيتها لهما يوماً بعد يوم، حتى قرّرت أن تقتلهما مع أبيهما في أقرب فرصة. وكان من المزمع أن يسافر والد الطفلين في اليوم التالي ليبحث عن أخشاب يصنع منها سهاماً لأقواسه، وقالت لنفسها إنه ستتاح لها فرصة جيدة لقتلهما بعد أن ذهابه، ثمّ تقتله حين يعود. وفي تلك الليلة، عادت إليه زوجته الأولى في منامه، وقالت له: «إن زوجتك هذه ساحرة، وهي تزمع قتل الطفلين غداً عندما تسافر، وستقتلك أيضاً عندما تعود إلى البيت. يجب أن تقتلها ما دام أمامك وقت. تذكّر طفليّ الصغيرين».

عندما استيقظ الرجل في الصباح، كان القلق يساوره بسبب القصّة التي حكتها له زوجته في المنام، لذلك لم يعد يثق بزوجته الساحرة، وقرّر أن يتخلّص منها. لكنّه خشي أنّ تقتل الطفلين قبل أن يتمكن من منع ذلك. لذلك، عندما خرجت الزوجة الساحرة لتجلب ماء من الجدول لإعداد الفطور، أعطى لكلّ طفل عصا وحجراً أبيض وحزمة من الأعشاب الناعمة، وقال

لهما: «يجب أن تهربا من هنا، وأن تقيما في مكان بعيد حتى آتي إليكما لأنكما معرضان لخطر كبير. وستجدان هذه الأشياء الثلاثة التي أعطيكما إياها مفيدة للغاية. ألقيا بها وراءكما إذا رأيتما أيّ شيء شرّير يلاحقكما، وستحميكما من أي أذى».

اعترى الطفلان خوف شديد فهربا إلى الغابة في الحال. ثمّ علّق الرجل شبكة العنكبوت السحرية على باب البيت، وجلس بهدوء ينتظر عودة زوجته. ثم عادت تحمل دلواً من الماء، لكنها لم تر الشبكة ذات الخيوط الرفيعة المعلقة عبر الباب، فعلقت فيها لحظة دخلت. وبذلت جهداً كبيراً للتملص منها، لكن رأسها كان داخل الباب وجسمها خارجه، وأطبقت عليها الشبكة حول رقبتها، ثمّ قال لها الرجل: «أعرف أنك ساحرة قاسية، ولن تتمكني من ضرب طفليّ بعد الآن». وضربها بفأسه الحجرية ضربة فصلت رأسها عن جسمها، ثمّ هرب من المنزل بأقصى سرعته وجرى باتجاه طفليه اللذين كانا يراقبانه من مكان قريب.

لكن الرجل لم يكن قد انتهى من المرأة الساحرة القاسية، فعندما أخذ يجري خارج البيت، أخذ جسمها المقطوع الرأس، الذي تحرر من شبكة العنكبوت، يجري وراءه، بينما أخذ رأسها المقطوع بعينيها الجاحظتين وشعرها المتطاير، يلحق الطفلين،

يتدحرج ويرتطم حيناً بالأرض، ويرتفع حيناً آخر في الهواء. وفكّر الأب أنه من الأفضل أن يذهب في اتجاه آخر بعيداً عن الطفلين، فاتجه غرباً، بينما ذهبا شرقاً. وتملك الطفلان خوف شديد عندما شاهدا الرأس المخيف يلاحقهما. ثم تذكّرا الهدايا السحرية التي أعطاها لهما أبوهما، وعندما اقترب منهما الرأس، ألقيا العصا وراء ظهريهما، فنشأت على الفور غابة كثيفة حالت بينهما وبين الرأس الذي يلاحقهما، وقال الطفلان: «سنرتاح الآن هنا قليلاً، لأننا تعبنا وانقطعت أنفاسنا». ولم تستطع الرأس الشرّيرة اجتياز الغابة الكثيفة، فجلسا على العشب يستريحان.

لكن سرعان ما ظهر الرأس الذي يلاحقهما من بين الأشجار الكثيفة، فنهض الطفلان وراحا يجريان بقدر ما استطاعا من قوة، لكن الرأس المقطوع ظل يجري وراءهما مباشرة، وكانت عيناه تتدحرجان وأسنانه تصطك في هيجان شديد، ويطلق صرخات فظيعة. اقترب الرأس منهما كثيراً، عندما تذكّر الأطفال الهدايا التي كان أبوهما قد أعطاها لهما، فألقيا بالأحجار البيضاء خلفهما، فارتفع على الفور جبل مرتفع من الصخور البيض حال بينهما وبين عدوهما، فجلسا أرضاً وارتاحا، وقالا: «يا إلهي، يا إلهي، ماذا

سنفعل؟ بقيت لدينا وسيلة واحدة من وسائل السلامة، حزمة الأعشاب الصغيرة هذه». وألقى الرأس الشرّير نفسه على الجبل، لكنّه لم يستطع عبوره. وكان ثور كبير يرعى العشب بالقرب منه، فطلب منه الرأس أن يشق له طريقاً عبر الجبل، فاندفع الثور بكل قوته نحو الجبل، لكن الجبل كان شديد الصلابة، فكسر رأسه وخرّ ميتاً. وكان هناك خلد في الأرض الطرية القريبة، فدعاه الرأس لكي يشق له طريقاً عبر التلّ، فوجد الخلد مكاناً في التراب الناعم وسط الصخرة، وسرعان ما شق فتحة إلى الجانب الآخر من الجبل، واستطاع الرأس أن يمر عبرها. وعندما رأى الطفلان الرأس يخرج من النفق الذي حفره الخلد، صاحا بأعلى صوتهما وهربا بأسرع ما يمكنهما. وأخيراً، وبعد مطاردة طويلة، بدأ الرأس يقترب منهما، فقرّرا أن يستخدما آخر وسيلة من وسائل حمايتهما، فألقيا حزمة الأعشاب الرطبة خلفهما، وعلى الفور ظهر مستنقع أسود طويل في المكان الذي سقطت فيه الأعشاب، حال بينهما وبين الرأس الشرّير. كان الرأس يجري بسرعة ويرتطم بالأرض، ولم يعد يستطيع أن تتوقّف، وتدحرج إلى المستنقع، واختفى في الطين الرخو ولم يعد يرى ثانية.

ثم ذهب الأطفال إلى البيت لانتظار أبيهما. كانت رحلة طويلة ومنهكة، لكن أباهما لم يأت. وانتظراه شهوراً عديدة، غير أنه لم يأت، وكبرا وأصبحا ساحرين عظيمين وقويين جداً في قبيلتهما. وأخيراً، وبقوّتهما السحرية، عرفا ما حدث لأبيهما. فقد استمر جسم زوجة أبيهما يلاحقه بعد أن هرب غرباً، ولحق به لأيام عديدة. لكن بقوّته السحرية التي منحتها له زوجته المرحومة في المنام، غيّر نفسه وأصبح الشمس، وذهب ليعيش مع زوجته في بلاد السماء، لكن المرأة الساحرة العجوز كانت تمتلك قوّة سحرية أيضاً، فغيّرت نفسها لتصبح القمر ولحقت به إلى أرض النجوم حيث لا تزال تلاحقه هناك. وبما أنه كان يسبقها لم تتمكن من الإمساك به، لذلك أصبح الليل يعقب النهار في العالم كلّه، لكنها إذا استطاعت اللحاق به، فستقتله، وبذلك سيختفي النهار وسيحل الليل على الأرض دوماً، ولا تزال سهول «بلاكفيت» تصلي لأن يظلّ دائماً في المقدمة في السباق مع زوجته السابقة الساحرة، لكي يظل الليل والنهار يتعاقبان على الأرض كلها.

الفتى الذي أنقذته الأفكار

في قديم الزمان، عاشت أرملة فقيرة بالقرب من البحر في شرق كندا، وكان زوجها قد غرق في أثناء صيده السمك في يوم عاصف قبالة الساحل، فلم يعد لها من معيل سوى ابنها الصغير، وبما أنهما كانا يعيشان وحدهما، فقد كانا رفيقين جيدين على الدوام. ورغم صغره ونحول جسمه، فقد كان قوياً جداً، ويستطيع أن يصطاد السمك والحيوانات مثل الرجل، وكان يجلب الطعام إلى أمّه كلّ يوم، فلم يحتاجا إلى أحد على الإطلاق.

في تلك الأثناء، صادف أن النسر العظيم الذي يصنع الريح في تلك البقاع قد غضب غضباً شديداً، لأنه لم يعد يحصل على قدر كاف من الطعام، وراح يصرخ في الأرض بحثاً عن الطعام، لكنه لم يجد شيئاً، فقال: «إذا لم يقدم لي الناس الطعام، فسأعمل على ألا يحصلوا على أي طعام لأنفسهم، وعندما أشعر بالجوع سآكل جميع الأطفال الصغار على الأرض، لأن صغاري يجب

أن يحصلوا على الطعام أيضاً». وهكذا أخذ يقذف المياه حوله بريح جناحيه الكبيرين، فأمال الأشجار، وسوّى الذرة وجعلها على مستوى سطح الأرض، واستمر لأيام عديدة محدثاً هذه الجلبة على الأرض فمكث الناس في بيوتهم، وأصبحوا يخشون الخروج منها ليبحثوا عن الطعام.

وجاع الفتى وأمّه أخيراً جوعاً شديداً، وقال: «يجب أن أذهب وأبحث عن الطعام لأنه لم تتبق لدينا ولا حتى كسرة خبز في البيت»، وقال لأمّه: «أعرف أين يعيش قندس صغير سمين في بيته المصنوع من القصب على ضفة الجدول قرب البحر. سأذهب وأقتله، وسنتغذى على لحمه عدّة أيام»، ولم ترغب أمّه في أن يقوم بهذه الرحلة الخطيرة، لأن النسر العظيم كان لا يزال في الأرض، لكنّه قال لها: «يجب أن تفكّري بي دائماً عندما أرحل، وسأفكّر أنا بك، وما دمنا نتذكر بعضنا، فلن يصيبني ضرر». وهكذا، فقد أخذ سكين الصيد الطويلة، وتوجه إلى القندس في بيته المصنوع من القصب على ضفة الجدول قرب البحر. وصل إلى المكان من دون أن يتعرض إلى أي أذى، ووجد القندس يغط في النوم، فأسرع وقتله وألقى به على كتفه وانطلق عائداً إلى بيت أمّه. وقال في نفسه: «سنتناول لحم القندس المشوي على العشاء الآن».

وبينما يسير حاملاً القندس على ظهره، رآه النسر العظيم من بعيد فانقضّ عليه بغتة. وقبل أن يتمكن من أن يضربه بسكينه، أمسكه النسر من كتفيه وارتفع ثانية، والقندس لا يزال على ظهره. حاول الفتى أن يغرز سكينه في صدر النسر، لكن ريشه كان سميكاً وقاسياً جداً، ولم يكن الفتى قوياً إلى درجة تمكّنه من غرز السكين في جسمه. ولم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً إلا أن يأسف على محنته، وقال في نفسه: «بالتأكيد يمكنني أن أفكّر بوسيلة للهرب، وستكون أفكار أمّي معي لتساعدني». وسرعان ما وصل النسر إلى بيته المبني فوق منحدر عال يطل على البحر على مسافة مئات الأقدام من الشاطئ، لا يصل إليه حتى صوت الأمواج التي تتلاطم من بعيد. وكانت في العشّ أفراخ صغيرة عديدة، تصرخ جميعها طلباً للطعام، وألقى النسر العظيم الفتى إلى جانب العشّ، وطلب منه أن يمكث هناك، وقال: «سآكل القندس أولاً، وبعد أن نتناوله كله ستكون لدينا وجبة طعام دسمة منك». ثمّ قطّع القندس إلى قطع وأطعم جزءاً منه لصغاره.

وعاش الفتى في العشّ أياماً عديدة مذعورة، يفكّر بطريقة للهرب. وكانت الطيور تحلّق فوقه عالياً، وكان يرى في عمق المحيط سفناً كبيرة تمخر عباب البحر، لكن لم تأته أي مساعدة،

وقال لنفسه إنه سيموت قريباً. وجلست أمّه في البيت تنتظر عودته، غير أنه مرت عدة أيام ولم يعد، وقالت في نفسها لابد من أنه في خطر شديد، أو ربما لقي حتفه. وفي أحد الأيام، بينما تبكي وتفكّر بابنها المفقود، جاءت عجوز وسألتها: «لماذا تبكين؟»، فقالت: «لم يعد ابني منذ عدّة أيام، أعرف أنه أصيب بأذى، وقد ذهب رجال قبيلتي يبحثون عنه، وسيقتلون كل من يحتجزه، لكنّي أخاف أنّه لن يعود حياً»، فقالت العجوز: «لا يستطيع رجال قبيلتك مساعدتك. يجب أن تساعديه بأفكارك لأن الأشياء المادية عقيمة. سأساعدك لأن شعب التلال الصغير منحني قوة عظيمة»، وهكذا استخدمت المرأة أفكارها، ورغبتها في أن يعود ابنها.

في تلك الليلة لاحظ الفتى أنهم أكلوا القندس كله، ولم تتبق منه لقمة واحدة، وعرف أنه ما لم يتمكن من إنقاذ نفسه حالاً فإنه سيموت في الغد لا محالة. وكان يعرف أن النسر العظيم سينقضّ عليه ويقتله بضربة واحدة من منقاره ومخالبه القوية. وعندما نام الفتى، رأى أمّه في منامه، وقالت له: «غداً عندما يخرج النسر العظيم من العشّ، ثبّت سكينك بحيث يكون طرفها متجهاً إلى الأعلى فوق الصخرة. وعندما ينقضّ عليك ليقتلك اغرز

السكين في صدره وعندها سيموت، لأنك لا تملك القوة الكافية لغرز سكينك في ريشه، غير أنه يملك قوة كافية ليحطم نفسه».

وفي صباح اليوم التالي، عندما خرج النسر العظيم، نفذ الفتى ما طلبته منه أمّه في المنام، فثبّت سكينه الحادة، وطرفها متجه إلى الأعلى فوق الصخرة، وجلس بهدوء وراح ينتظر، ثمّ سمع النسور الصغيرة تحدث جلبة شديدة، وتبكي بصوت مرتفع لكي تتناول طعام فطورها. وعرف أن ساعته قد أزفت. وعندما سمع النسر العظيم صيحات صغاره، عاد محلقاً إلى العشّ ليقتل الفتى، وطار حوله في دوائر وهو يصيح بصوت مرتفع، ثم انقضّ عليه بقوة هائلة، راجياً أن يقتله بمنقاره ومخالبه. لكنه بدلاً من ذلك، أصاب نصل السكين المثبتة فوق الصخرة، واخترقت صدره بعمق، وبصرخة عالية، تدحرج ميتاً داخل العشّ؛ ثمّ قتل الفتى النسور الصغيرة، وعندها تأكد أنه أصبح في مأمن لفترة من الزمن.

لكنّه لم يعرف كيف يمكنه أن ينزل من عشّ النسر، لأنه يقع فوق منحدر ناتئ مرتفع فوق الشاطئ، وكان خلفه جدار صخري لا يستطيع أن يتسلقه، ولم تكن لديه الوسائل ليصنع منها سلّماً، ولن تُسمع صيحاته على الشاطئ بسبب صوت

الأمواج الصاخبة. وقال في نفسه لابد من أنه سيقضي جوعاً، فراح يبكي في تلك الليلة حتى يخلد إلى النوم، لكن أمه عاودت زيارته في المنام وقالت له: «أنت فتى أحمق. لماذا لا تنفذ الأفكار التي أبعثها لك؟ غداً اسلخ جلد النسر وادخل في الجلد، فإذا كان الجناحان العريضان يستطيعان أن يحملا النسر في الهواء فهما يستطيعان أن يحملاك أيضاً. ارم بنفسك من المنحدر وستهبط بسلامة إلى الشاطئ». وفي اليوم التالي، نفذ الفتى ما قالته له أمّه في المنام، وسلخ النسر العظيم بعناية، ثمّ زحف إلى داخل الجلد، ودفع ذراعيه في الجناحين، لكي تمسك ذراعاه الممدوتان الجناحين تحتهما. ثمّ استعد للهبوط، لكنه عندما نظر إلى أسفل المنحدر، اعتراه خوف شديد لأن المشهد تحته جعله يشعر بالدوار، فقد بدا له الرجال على الشاطئ بحجم الذباب بسبب المسافة الكبيرة التي تفصله عنهم، لكنّه تذكّر الوعد الذي سمعه في المنام. وهكذا ألقى بنفسه من المنحدر وراح يهبط، وجعله جناحا النسر العظيم يهبط ببطء في الهواء، ثم وصل بسلام دون أن يصيبه أي أذى على الشاطئ، وخرج من الجلد واتجه إلى بيته. كانت رحلة طويلة لأن النسر العظيم كان قد حمله إلى مكان بعيد، لكنه وصل إلى بيته بسلامة قبيل المساء، واستقبلته أمّه بفرح شديد.

وراح الفتى يتباهى بمغامرته، وكيف قتل النسر العظيم، وكيف هبط من دون أن يصاب بأذى من المنحدر، وأخذ يتحدث عن نفسه وعن قوّته ودهائه بفخر شديد. لكن العجوز من أرض الشعب الصغير، جنّية التلال، التي كانت لا تزال موجودة مع أمّه، قالت: «أيها الفتى المتغطرس، لا تتباه كثيراً بنفسك، فقوّتك لا تساوي شيئاً، ودهاؤك لا يساوي شيئاً. لم تكن هذه الأمور هي التي أنقذتك، بل قوّة أفكارنا هي التي فعلت، وهي وحدها التي تبقى وتفلح عندما يخفق كلّ شيء آخر. لقد علّمتك أن جميع الأشياء المادية عديمة النفع في نهاية الأمر مثل الرماد أو الغبار. إن أفكارنا وحدها هي التي تستطيع أن تساعدنا في النهاية لأنها وحدها الأبدية». وأنصت الفتى ودهش لما قالته العجوز من أرض الشعب الصغير، ولم يعد يتباهى ويتبجّح بقوّته.

الطير المغرّد والمياه الشافية

في قديم الزمان، عندما كست الأرضَ طبقة سميكة من الثلج الأرض، وصبغ الصقيعُ الأيام باللون الرمادي، غرقت إحدى قرى الهنود الحمر في حزن شديد، فقد اجتاحها وباء الطاعون وأودى بحياة عدد كبير من أبنائها. ولم يسلم من شرّه لا كبير ولا صغير، ووقف الضعفاء والأقوياء أمامه عاجزين، لا حول لهم ولا قوة. وجرّب الناس كلّ وسيلة ممكنة ليتخلصوا من هذا الوباء، لكنّ محاولاتهم جميعها باءت بالفشل. وراحوا يتضرعون ويصلّون لجميع أرواحهم الطيبة كي تهب لمساعدتهم، لكن لم تأتهم أي مساعدة. وكان في القبيلة محارب شاب فقد أبويه وإخوته وأخواته جميعهم بسبب هذا المرض البغيض، ووقعت زوجته الشابة فريسة المرض، فتملكه حزن شديد لأنه خيّل إليه أنها ستلحق بأبويه قريباً إلى أرض الظلال. وهكذا فقد انطلق والخوف الشديد يتملكه، لا يعرف متى ستحل النهاية.

وفي أحد الأيام، التقى عجوزاً في الغابة، فسألته: «لماذا تبدو حزيناً هكذا؟»، فأجاب: «إني حزين لأن زوجتي الشابة ستموت، إذ إن الطاعون سيجرفها معه كما جرف الآخرين»، لكن العجوز قالت: «هناك شيء واحد يمكنه أن ينقذ زوجتك من الموت. ففي مكان بعيد في الشرق، يوجد طير جميل الصوت يغرد ألحاناً رائعة بالقرب من ينبوع المياه الشافية. انطلق وستجده هناك، وسيدلك على ينبوع الشفاء»؛ فقال الشابّ: «يجب أن أجد المياه الشافية، أينما كانت على وجه الأرض»، وهكذا ذهب إلى البيت وودّع أصدقاءه، وانطلق باتجاه الشرق بحثاً عن الينبوع.

وأمضى اليوم التالي كله يبحث بحماسة شديدة، مرهفاً السمع دائماً إلى الطير الذي يغرّد ألحاناً جميلة، لكنّه لم يجد شيئاً. وكانت طبقات الثلج العميقة تكسو الغابة، مما جعل المشي أكثر صعوبة عليه. وفي طريقه، التقى أرنباً وقال له: «أخبرني، أين يمكنني أن أجد ينبوع الشفاء؟». لكن الأرنب انطلق بعيداً وهو يقفز فوق الثلج ولم يجبه. ثمّ سأل دبّاً، لكنّه لقي الرفض نفسه. وهكذا، لأيام وليال عديدة راح يجوب الغابة، عابراً الأنهار ومتسلقاً التلال الوعرة، ولم يكن يجد من كل من يسأله سوى الصدود نفسه.

وذات يوم غادر بلاد الثلج وجاء إلى أرض فيها الهواء أكثر دفئاً وتتدفّق فيها جداول صغيرة. وفجأة سقط فوق جسد رجل ميت مستلق في وسط الدرب، فتوقّف ودفن الجثة، لأنه رأى أنه من غير الملائم أن يتركه عارياً على الأرض تنهشه الطيور. وفي تلك الليلة، فيما يمشي في ضوء القمر، صادف ثعلباً في طريقه. فقال الثعلب: «مرحباً، عمّ تبحث في الغابة في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟»، فأجاب: «أبحث عن الطير الذي يغرّد ألحاناً عذبة، والذي سيدلني على ينبوع الشفاء»، فقال الثعلب: «أنا روح الرجل الذي دفنته البارحة الذي كان ملقى على الدرب في الغابة، ومكافأة للرحمة التي أظهرتها والمعروف الذي صنعته لي، فسأسديك جميلاً. إنك تعامل الحيوانات والطيور بطيبة دائماً، ولم تقتل أياً منها بلا سبب، وعندما كنت تقتلها، فإنك لم تكن تفعل ذلك للحصول على اللباس أو الغذاء. وتعتني دائماً بالأزهار والأشجار، وتحميها من الأذى، لذلك فهي تريد أن تكون طيبة معك الآن، وسأرشدك على الطريق، لكن يجب أن ترتاح أولاً، لأنك مرهق من رحلتك الطويلة».

عندها اضطجع الشابّ لينام وقف الثعلب إلى جانبه ليحرسه. وعندما غطّ في النوم رأى زوجته في المنام شاحبة ضامرة ذابلة،

وبينما ينظر إليها، سمعها تغنّي أغنية رائعة اللحن، ثمّ سمع خرير شلال إلى جانبه يقول: «ابحث عني أيها المحارب، وعندما تجدني فإن زوجتك ستعيش، لأنني أنا المياه الشافية» وفي الصباح، قاده الثعلب مسافة قصيرة عبر الغابة، وسمع صوت طير يجثم على غصن شجرة وهو يغرّد أغنية رائعة اللحن، كما كان قد سمع في حلمه في الليلة الماضية. فعرف أن الطير الذي يغرّد هذه الأنشودة الحلوّة هو الطير الذي حدثته عنه العجوز في الغابة. وبينما ينصت، تناهى إلى سمعه صوت خرير ماء شلال في مكان ليس ببعيد، فراح يبحث عنه، لكنّه لم يجده. قال له الثعلب: «يجب أن تبحث عنه. يجب ألا تيأس. إنه لن يأتي إليك إذا لم تبحث عنه». وهكذا بدأ يفتّش ثانية، وسرعان ما خيّل إليه أنه سمع صوتاً يتكلّم تحت قدميه، منادياً: «أطلق سراحنا. حرّرنا وستشفى زوجتك وجميع أهلك»، فأمسك عصا حادّة وأخذ يحفر بها بسرعة في الأرض التي سمع منها الصوت. حفر بحماسة وبسرعة، ولم يحفر في الأرض كثيراً حتى بدأ الينبوع يتدفق بقوة إلى الأعلى مرسلاً إلى العالم قوّته الشافية. وعرف الشابّ أنه وجد أخيراً الشفاء لجميع الأمراض. وغاص في النبع واستحم في الماء، فزال عنه كل تعبه وعاد قوياً ثانية.

ثمّ صنع الشابّ من التراب الناعم قِدراً كبيرة، ووضعها على النار حتى غدت قاسية. ثم قالت له روح الثعلب: «سأتركك الآن. لقد كوفئت على طيبتك ومعروفك، ولم تعد بحاجة إليّ لأنك وجدت المياه الشافية». واختفى بالغموض نفسه الذي ظهر فيه. وملأ الشابّ القِدر التي صنعها من الطين بالماء الفوّار وهرع عائداً إلى بيته، وأخذ يجري في الغابة بسرعة الريح بسبب قوّته المتجدّدة.

وعندما وصل إلى قريته، قابله الناس بوجوه حزينة لأن الطاعون كان لا يزال يفتك بالقرية، وأخبروه أنّ زوجته الشابة أوشكت على الذهاب إلى أرض الظلال. لكنّه هرع إلى بيته، ووضع قليلاً من المياه الشافية بين شفتي زوجته الجافتين، وغسل يديها وحاجبيها حتى غطت في نوم عميق. وراح ينظر إليها حتى أفاقت، وعندما غادرها النوم تحسنت صحتها ثانية. ثمّ عالج جميع أهالي القرية بالمياه الشافية، وتركهم الطاعون المتوحش، ولم يتبق مرض على الأرض. ومنذ ذلك الحين، لم يعد الطاعون ينتشر بين أفراد قبيلته. وهكذا ظهرت الينابيع المعدنية في الأرض حاملة معها الصحة والسعادة حيثما تنبع، ويرافقها دائماً تغريد الطيور.

الفتى الذي هزم العمالقة

في قديم الزمان، قبل أن يأتي الرجل الأبيض إلى كندا، عاش فتى يتيم وحده مع عمّه، ولم يكن سعيداً جداً، بسبب اضطراره إلى العمل كثيراً، والقيام بأعمال شاقة تلائم رجلاً أكثر مما تلائم فتى مثله. وعندما مات أبواه وتركاه دون أخ أو أخت، أخذه عمّه إلى بيته ليرعاه لعدم وجود شخص آخر يمكن أن يحيطه بالرعاية. لكنّ عمه كان يعامله بقسوة شديدة، وكان يتمنى في كثير من الأحيان أن يتخلص منه. ومهما فعل الفتى ومهما اصطاد من سمك وحيوانات، لم يكن عمّه يرضى عنه، وكان يضربه غالباً بقسوة شديدة لأتفه الأسباب. فصار الفتى يتمنى أن يهرب، لكنّه لم يكن يعرف إلى أين سيذهب، وكان يخاف من التجول وحيداً في الغابة المظلمة. لذلك قرّر أن يتحمّل هذه المشاق والظلم الذي يتعرض له بقدر ما يستطيع.

وصادف زعيماً معروفاً بوحشيّته، طبقّت شهرته الآفاق، يعيش في قرية قريبة من البحر. وكان سيء المزاج، ويُعرف بأنه

قتل الكثير من الناس دون سبب على الإطلاق. والأهم من ذلك، كان يكره المتبجحين والذين يتباهون بأنفسهم ولم يكن يطيق أن يرى شخصاً يتباهى بقوته، وكان على الدوام يذّل المتغطرسين ويحّط من قدر المتعجرفين. وكان عمّ الفتى قد سمع بهذا الحاكم الشرّير، وقال في نفسه: «هذه فرصتي لأتخلص من الفتى. وسأروي للزعيم قصصاً كاذبة عنه».

وصادف أن جاء إلى أرض الزعيم ثلاثة عمالقة في ذلك الحين. ولم يكن أحد يعرف من أين جاؤوا، لكنّهم أقاموا في كهف كبير بالقرب من البحر، وعاثوا في الأرض فساداً وألحقوا فيها خراباً ودماراً شديدين. وأتوا على مخازن كبيرة من الطعام، والتهموا جميع الأطفال الصغار الذين تمكنوا من الإمساك بهم. واستخدم الزعيم كلّ السبل الممكنة للتخلّص من هؤلاء العمالقة، لكن دون جدوى. وليلة بعد ليلة، كان أفضل رجاله المحاربين يذهبون إلى الكهف القريب من المحيط يبحثون عن العمالقة، فلا يعود منهم أحد. وفي اليوم التالي، كانوا يجدون دائماً عند باب الزعيم قطعة من خشب البتولا حُفرت عليها صورة المحارب وقد اخترق قلبه سهم، تخبره عن مصيره. وواصل العمالقة عملهم الوحشي هذا، لأنه لم يكن ثمة أحد يستطيع أن يردعهم ويوقفهم عن عملهم الوحشي.

وسرعان ما دبّ الذعر في نفوس سكان القرية، وتساءل الزعيم عما يمكن أن يفعله، وأخيراً قال لنفسه: سأقدم ابنتي إلى الرجل الذي يستطيع أن يخلصني من تلك الآفات».
وكانت ابنته الوحيدة التي تتمتع بقدر كبير من الجمال، وكان يعرف أن الكثيرين سيتقدمون لطلب يد ابنته، لأنه بالرغم من خطورة المهمّة، فإن الجائزة جديرة بذلك. وعندما سمع العمّ الشرّير في القرية البعيدة ذلك، قال في نفسه: «الآن يمكنني أن أتخلّص من الفتى، لأنني سأقول للزعيم إنه باستطاعة الفتى أن يقتل العمالقة»؛ وهكذا أخذ ابن أخيه وذهب إلى بيت الزعيم وطلب مقابلته، ثم قال له: «أيها الزعيم، عندي فتى يتبجح منذ أيام عديدة بأنه يستطيع أن يحرّر أرضك من العمالقة». فقال الزعيم: «أحضره لي»، فقال الرجل: «ها هو». ففوجئ الزعيم برؤية الفتى الصغير، وقال: «لقد وعدت بأنّك قادر على أن تخلّص أرضي من العمالقة. هيا لنر ماذا يمكنك أن تفعل. وإذا نجحت فإني مستعد لأن أزوّجك ابنتي، وإذا فشلت، فستموت. وإذا هربت من العمالقة فسأقتلك بنفسي. إني أكره المتبجّحين المتغطرسين، ولا يمكنهم أن يعيشوا في أرضي».

ذهب الفتى وجلس بالقرب من المحيط، وأجهش في البكاء، فقد خيّل له أنه سيموت لا محالة، لأنه كان صغيراً جداً ولا سيلة لديه يقتل بها العمالقة. لكن بينما كان جالساً هناك، جاءت امرأة عجوز، خرجت بهدوء وبسرعة كبيرة من ضباب البحر الرمادي، وسألته: «لماذا تبكي؟». فقال الفتى: «أبكي لأنني أُرغمت على مهاجمة العمالقة في الكهف، وإذا لم أستطع أن أقتلهم فإني ميت لا محالة»، وأجهش في البكاء بصوت أعلى. لكن العجوز التي كانت جنيّة البحر الطيبة، قالت: «خذ هذا الكيس وهذه السكين وهذه الأحجار الصغيرة الثلاثة التي سأعطيك إياها، وعندما تذهب الليلة إلى كهف العمالقة، استعملهما كما سأخبرك، وسيسير كلّ شيء على ما يرام»؛ وأعطته ثلاثة أحجار بيض صغيرة وسكيناً صغيرة، وكيساً يشبه مثانة الدبّ، وعلّمته كيف يستخدمها، ثمّ اختفت في الضباب الرمادي الذي يغطي سطح المحيط ولم يرها الفتى مرة أخرى.

استلقى الفتى على الرمل وغط في النوم. وعندما استيقظ، كان القمر قد طلع، وفي مكان بعيد على الشاطئ تمكن من رؤية فجوة في الصخور تحت ضوء القمر المتلألئ، وعرف على الفور أنها مدخل كهف العمالقة. أخذ الكيس والسكين

والأحجار الصغيرة الثلاثة، وبدأ يقترب بحذر شديد، وقلبه يرتجف. وعندما وصل إلى فتحة الكهف سمع شخير العمالقة في الداخل، محدثين ضجيجاً شديداً، أعلى من هدير البحر. ثمّ تذكّر تعليمات العجوز، فربط الكيس داخل معطفه بحيث تكون فتحته قريبة من ذقنه، ثمّ أخرج حجراً من جيبه، فكبر على الفور وتضخم حجمه، وبات ثقيلاً إلى درجة أنه لم يكد يستطيع حملها، وألقى بها على العملاق الكبير الذي يتمتع بقوة عظيمة، وأصابه في رأسه مباشرة. انتصب العملاق في جلسته وراح يحدق بغضب شديد حوله ويفرك حاجبه. ركل أخاه الأصغر المستلقي إلى جانبه، وقال بغضب شديد: «لماذا ضربتني؟»، فقال أخوه: «أنا لم أضربك». فقال العملاق: «لقد ضربتني على رأسي وأنا نائم، وإذا فعلت ذلك ثانية فإني سأقتلك»، ثمّ عاد وغط في النوم ثانية.

ما إن سمع الفتى شخيرهم يعلو ثانية، حتى تناول حجراً ثانياً من جيبه، وعندما كبر ألقاه بقوة كبيرة على العملاق الكبير، فانتصب في جلسته ثانية، وراح يحدّق بغضب ويحكّ رأسه، لكنه لم يقل شيئاً هذه المرة، بل أمسك بفأسه الملقاة إلى جانبه، وهوى بها على أخيه وقتله بضربة واحدة، ثمّ عاد ليغط في النوم

ثانية. وعندما سمعه الفتى يشخر، تناول حجرة ثالثة من جيبه، وما إن كبرت حتى رماها بكلّ قوته على العملاق. ومرة أخرى جلس العملاق وراح يحدق بشدة، يفرك الكتلة التي تشكلت في رأسه. استشاط غضباً وصرخ: «إن أخويّ يزمعان قتلي»، فأمسك فأسه وقتل أخاه الآخر بضربة واحدة، ثمّ عاد لينام. انسّل الفتى من الكهف، وجمع الأحجار الثلاثة التي عادت إلى حجمها الصغير كما كانت.

وفي صباح اليوم التالي، عندما ذهب العملاق ليجلب ماء من الجدول، اختبأ الفتى وراء الأشجار وراح يبكي بصوت عال، وسرعان ما اكتشف العملاق وجوده وسأله: «لماذا تبكي؟». فقال الفتى: «لقد ضللت طريقي، فقد ذهب أبواي وتركاني. أرجوك خذني معك لأقوم على خدمتك، لأنني أريد أن أعمل عند رجل وسيم رحيم، كما أنني أستطيع أن أفعل أشياء كثيرة». اعترى العملاق إحساس بالغرور مما قاله الفتى، ومع أنه كان يحبّ أن يأكل الأطفال الصغار، فقد قال في نفسه: «بما أنني أصبحت وحيداً الآن، يجب أن يكون عندي رفيق، لذلك لن أقتل الفتى وسأجعله خادماً لي». وأخذ الفتى معه إلى كهفه، وقال له: «حضّر لي طعام العشاء قبل أن أعود إلى البيت. اصنع قليلاً من الحساء اللذيذ، لأنني

سأكون جائعاً جداً». وعندما خرج العملاق إلى الغابة، أعدّ الفتى وجبة الطعام المسائية، وقطّع كمية كبيرة من لحم الأيّل، ووضعه في قِدر أكبر من برميل كبير، وأعدّ حساء لذيذاً من اللحم. وعندما عاد العملاق في المساء، كان جائعاً جداً وشعر بالسرور عندما رأى القِدر الكبيرة مليئة بطعامه المفضّل. جلس على أحد جانبي القدر، وجلس الفتى على الجانب الآخر، وغمسا ملعقتيهما في الصحن الكبير. قال الفتى: «يجب أن نتناولها بسرعة لأتمكن من تنظيف القِدر، وأحضّر هريسة الذرة التي سنتناولها على الفطور».

كان الحساء حاراً جداً، ولكي يبرّده، كان العملاق ينفخ عليه حالما يخرجه من القِدر وقبل أن يضعه في فمه. لكن الفتى صبّ الكمية التي يتناولها في الكيس الذي يخبئه تحت معطفه، وقال: «لماذا لا تستطيع أن تأكل طعاماً حاراً وأنت رجل عملاق؟ ففي قريتي لا يتوقف الناس عن نفخ الحساء لكي يبرّدوه قبل تناوله».

ولم يكن بوسع العملاق أن يرى جيداً، لأن قوة بصره لم تكن قوية جداً، وكان الكهف مظلماً، لذلك لم ير الفتى وهو يضع الحساء في الكيس بسرعة، وكان يظنّ أن الفتى يحتسيه. وخجل العملاق من تأنيب الفتى له لأنه كان أضخم منه بكثير، فبدأ يتناول الحساء الحار بجرعات كبيرة فأحرق حنجرته، لكنّ كبرياءه جعله لا يتوقف عن ذلك.

عندما تناولا نصف كمية القِدر، قال العملاق: «لقد شبعت. لا أظن أنني أستطيع أن أتناول المزيد»، فقال الفتى: «لا، يجب أن تظهر لي أنك أحببت طبخي. ففي قريتي يأكل الناس كمية أكبر من هذه بكثير». واستمر في تناول الطعام. وبما أنه لا يمكن لهذا الفتى أن يتفوق على العملاق، فقد عاد ليأكل ثانية، ولم يتوقّفا عن تناول الحساء إلا بعد أن أجهزا على قِدر الحساء كله. لكن الفتى كان يدلق الحساء الذي يتظاهر بأنه يتناوله في الكيس، وعندما أنهيا طعامهما، ازداد حجم العملاق كثيراً، ولم يعد يستطيع أن يتحرّك لأنه تناول كمية كبيرة من الحساء، وقال: «لقد تناولت الكثير من الحساء. أشعر بشبع شديد، وأحسّ بألم شديد في بطني»، فقال الفتى: «وأنا لا أشعر بالراحة أيضاً، لكنّ لديّ وسيلة لعلاج الألم»، وعلى الفور أخذ سكينه الصغيرة ودفعها برفق في طرف الكيس فبدأ الحساء يتسرب، وسرعان ما عاد إلى حجمه الطبيعي. ودُهش العملاق كثيراً مما رآه، لكن الفتى قال: «إنهم يستخدمون هذه الطريقة في قريتي بعد أن يتناولوا طعاماً كثيراً في وليمة كبيرة»، فسأله العملاق: «ألا تؤلم السكين؟». فقال الفتى: «لا، في الواقع إنها تسبب شعوراً بالراحة الشديدة»، فقال العملاق: «إن حنجرتي تؤلمني كثيراً، فقد احترقت من حرارة الحساء»، فقال الفتى: «ستشعر بتحسّن

بسرعة إذا فعلت كما فعلت أنا». تردّد العملاق في البداية، لكنه سرعان ما بدأ يشعر بانزعاج لم يعد يطيقه، ورأى الفتى مرتاحاً، فأخذ سكينه الطويلة ودفعها في بطنه. «ادفعها إلى الداخل بقوة»، قال الفتى، «وإلا فإنها لن تفيدك كثيراً». فغرز العملاق السكين حتى آخرها، وعلى الفور سقط ميتاً.

ثمّ أخذ الفتى الأحجار والكيس والسكين التي أعطته إياها امرأة الضباب، وذهب وأخبر الزعيم بما أنجزه، فأرسل الزعيمُ رسله إلى الكهف ليتأكدوا من صحة كلام الفتى، وكما كان متوقعاً، وجدوا العمالقة الثلاثة ميتين. وعندما أخبروا الزعيم بما رأوه، قال للصبي: «يمكنك أن تتزوج ابنتي». لكن الفتى قال: «لا أريد ابنتك. إنها تكبرني في السن وهي بدينة، وأريد مصائد أصطاد فيها السمك والحيوانات». وأعطى الزعيم الفتى مصائد كثيرة، وذهب إلى بلد بعيد يصطاد فيها الحيوانات حيث عاش سعيداً وحده. ولم يره عمّه الشرّير ثانية، لكن لم يعد العمالقة يزعجون الأرض، بسبب أعمال الفتى العظيمة.

الشاب ورقصة الكلب

في قديم الزمان، عندما كان الهنود يقيمون في الشمال الغربي من البلاد، ابتعد شاب كثيراً عن قريته الأصلية ليصطاد الطيور. وكان بنو قومه يعيشون بالقرب من بحيرة تبني عندها الطيور الصغيرة أعشاشها، ولما أراد ريشاً لامعاً وملوّناً كبيراً ليزيّن سهامه وقلسنوته، كان عليه أن يلج إلى أعماق الغابة حيث تعيش طيور أضخم حجماً ذات ريش رائع. وعندما وصل إلى «أرض الريش الكثير»، في مكان بعيد من بلاد الشمال، حفر حفرة فوق قمة هضبة مرتفعة، ثمّ غطّى الحفرة بألواح من الخشب، ونثر فوقها أعشاباً وأوراق أشجار لكي تبدو البقعة شبيهة بالأرض من حولها، ونثر قليلاً من اللحم والذرة فوق العشب، وربط الطعام بالعواميد لكي لا تتمكن الطيور من أخذها، ثمّ هبط إلى الحفرة، وانتظر مجيء الطيور، لكي يصعد ويمسكها من أقدامها ثم يقتلها. انتظر الشاب الطيور طوال النهار، وحتى فترة متأخرة من الليل، لكن طيراً واحداً لم يأت، وقبيل الصباح، سمع صوتاً من بعيد يشبه

صوت الحجل، لكن الصوت لم يقترب. وفي الليلة التالية، وبينما ينتظر الشاب ويراقب في الحفرة، سمع الصوت نفسه، وقال: «سأرى من أين تأتي الضوضاء وسأكتشف السبب لأنه ليس حجلاً، وهو شيء غريب جداً»، وهكذا خرج من الحفرة، وسار باتجاه الصوت. وأخذ يغذ الخطى في الغابة حتى وصل إلى ضفة بحيرة كبيرة عند الفجر. ثم تناهى إليه الصوت من مكان قريب من البحيرة، لكن عندما وقف يرهف السمع، توقّف الصوت فجأة. وفي الليلة التالية، سمع الصوت أعلى من قبل، فعاد إلى البحيرة، ومرة أخرى كان الصوت متميّزاً عندما انبعث من الماء. وعندما نظر إليها، رأى أعداداً كبيرة من الطيور والحيوانات تعوم في البحيرة تحت ضوء القمر، لكن لم يكن ثمة تفسير للصوت الغريب. وبينما جلس يراقب الحيوانات والطيور، بدأ يصلي لروح ملاكه الحارس ليخبره عن سبب انبعاث الصوت، وسرعان ما قدم رجل هرم، محني الظهر، متغضن البشرة، إنما لطيف العينين وقدم له الشاب قليلاً من التبغ وجلسا معاً على ضفة البحيرة يراقبان الحيوانات وهي تعوم في الضوء الخافت، وراح كلّ منهما يدخّن غليونه.

سأله الشيخ: «ماذا تفعل هنا؟».

فقال الشاب: «أحاول أن أعرف مصدر الصوت الغريب».

فقال الشيخ: «لقد أحسنت صنعاً في البحث عنه لكي تعرف سبب الأشياء كلها، فبهذه الطريقة فقط تصبح عظيماً وحكيماً. لكن تذكّر أن هناك أشياء لن تتمكن من معرفة أسبابها على الإطلاق».

فسأله الفتى. «من أين جئت؟».

فقال الرجل: «في قديم الزمان كنت أعيش مثلك في بلد الخيال حيث تقيم الأحلام العظيمة، وفي الواقع فإني لا أزال أعيش هناك، لكن أحلامك جميعها هي أحلام المستقبل، أما أحلامي فهي من الماضي، لكنك ستتغيز ذات يوم أيضاً، وستصبح أفكارك مثل أفكاري».

قال الفتى: «حدثني عن مصدر الصوت».

فقال الشيخ: «خذ هذه العصا ولوّح بها قبل أن تنام، فربما رأيت أشياء غريبة».

وأعطى الفتى العصا واختفى في الغابة. لوّح الفتى بالعصا ونام على الرمل كما أخبره الشيخ. وعندما استيقظ وجد نفسه

في حجرة كبيرة وسط أناس كثيرين، بعضهم يرقص برشاقة، وبعضهم جالس يتحدث، وقد ارتدوا أردية رائعة مصنوعة من الجلود والريش بألوان عديدة ومختلفة. وتمنّى الفتى أن يحصل على هذا الريش ليزيّن به ثيابه وقلنسوته. لكنه بينما ينظر إلى الناس أدرك فجأة أنّهم ليسوا سوى الحيوانات والطيور التي رآها منذ ليلتين وهي تعوم في البحيرة في ضوء القمر، سوى أنها تبدلت الآن وأصبحت في هيئة بشر، بواسطة قوّة غريبة وخارقة. وقد عاملته هذه الكائنات معاملة بالغة اللطف.

توقف الرقص أخيراً، ثم توقّف الكلام، ونهض أحدهم يبدو أنه الزعيم في الطرف الآخر من الحجرة وقال: «أيها الشاب الغريب، لقد سمعت الروح العظيمة صلواتك، وبسبب عصاك السحرية أُرسلنا إليك في هذه الأشكال. إن المخلوقات التي تراها هنا هي حيوانات العالم وطيوره، فأنا الكلب الذي تحبّه الروح العظيمة كثيراً، وأمتلك قوّة كبيرة، وسأعطيك قوّتي، وسأحميك وأحرسك طوال الوقت. وحتى لو عاملتني بقسوة فإني سأظل وفياً لك، ولن أكون فظاً معك مطلقاً، لكنّك يجب أن تأخذ هذه الرقصة إلى بلدك، وتعلّمها لقومك الذين يجب أن يرقصوا هذه الرقصة مرة كلّ سنة». ثمّ علّم الشاب أسرار رقصتهم. وعندما

تعلّم الشاب الرقصة، التفت الزعيم إلى رفاقه وقال: «رفاقي وإخوتي، لقد علّمت الغريب الشاب أسرار الرقصة، وقد منحته قوتي. هلا أشفقتم على مخلوق الأرض وقدمتم له شيئاً من القوّة التي تمتلكونها؟».

لمدة طويلة، لم يفه أحد بكلمة، لكن البومة نهضت أخيراً وقالت: «سأساعده أنا أيضاً، فأنا أمتلك قوّة الرؤية إلى مسافات بعيدة في الظلام والصيد في الليل، وعندما يخرج في الليل سأكون بقربه، وسيرى من مسافات بعيدة. سأعطيه هذا الريش ليعقده على شعره»، وأعطته البومة باقة من الريش فربطها الشاب في رأسه. ثمّ تقدّم الجاموس وقال: «وأنا سأساعده أيضاً. سأمنحه قدرتي على التحمّل وقوّتي ومقدرتي على أن أدوس أعدائي تحت أقدامي. وسأعطيه هذا الحزام المصنوع من جلد الجاموس المدبوغ لكي يتمنطق به عندما يذهب إلى الحرب»، وأعطى الشاب حزاماً رائعاً. وأخذت الحيوانات والطيور، الواحدة تلو الأخرى، تمنحه قوّتها بسعادة كبيرة. إذ أعطاه الشيهم ريشاً ليزّين به حزامه الجلدي وقلنسوته، وقال: «سأساعدك أنا أيضاً، فعندما تشنّ حرباً سأكون قريباً منك؛ إذ يمكنني أن أجعل أعدائي ضعفاء كالأطفال، يهربون دائماً عندما أقترب منهم، لأنهم يخافون من الريش الذي

أطلقه عليهم. وعندما تواجه أعداءك فستتغلّب عليهم دائماً، لأني سأمنحك القوّة كما مُنحت لي»، وقال الدبّ: «سأعطيك صرامتي وقوّتي، وشريطاً من الفراء تضعه على حزامك الجلدي ومعطفك، وعندما تتعرض للخطر، فلن أكون بعيداً عنك، ثمّ قال الأيّل: «سأعطيك السرعة. وعندما تلحق أعداءك يمكنك أن تلحق بهم دائماً، وإذا هربت منهم، فإنك ستسبقهم على الدوام».

ثمّ تكلّمت الطيور الأخرى، فقال الكركي: «سأعطيك عظمة من جناحي لتصنع منها صافرة للحرب تخيف بها أعداءك، أو لتدعو قومك إلى نجدتك عندما تكون بحاجة إليهم. وسأعطيك جناحي لتغطي رأسك»، ثمّ تكلّم النسر العملاق وقال: «أيها الشاب، سأسمعك أينما ذهبت، وسأعطيك قوّتي وقدرتي في الحرب. وعندما أفعل ذلك، فإنك سترى أعداءك دائماً من مسافة بعيدة، ويمكنك أن تهرب منهم دائماً إذا أردت ذلك»، وأعطاه حزمة كبيرة من ريش النسر الرائع ليربطه في شعره كرمز لوفائه. وأخيراً قالت القطّة البرّية: «سأعطيك قوّتي لكي تزحف خلسة فوق العشب وتحت الشجيرات وتنقض بغتة على أعدائك، وسأعطيك كذلك قدرتي على الاختفاء من أعدائي»، وأعطته قطعة من فرائها ليزيّن بها ثيابه عربوناً على صداقتها له.

وتلقى الشاب من جميع الحيوانات والطيور القوّة والهدايا، ثمّ لوّح بعصاه السحرية واستلقى لينام. وعندما أفاق، وجد نفسه على شاطئ البحيرة، في مكان بعيد في الشرق، كان الفجر قد بدأ يبزغ. لكنّه أصبح يستطيع أن يرى إلى مسافة أبعد مما كان يرى من قبل، وعلى مسافة بعيدة صار قادراً على رؤية التلال الزرقاء والدخان المتصاعد من القرى البعيدة، وعرف أنه أصبح يمتلك قوّة غريبة، ولم يصدر أي صوت من البحيرة حتى نهاية العالم.

وأخذ الشاب عصاه السحرية وهداياه وانطلق إلى قريته، وأخبر قومه بما حدث وعلّمهم أسرار الرقصة التي ستجعلهم أقوياء ومنتصرين في الحرب، وأصبح بنو قومه يرقصون هذه الرقصة في احتفال كبير على مدى عصور طويلة، عُرفت باسم رقصة الكلب. ومنذ ذلك الحين، أصبحت الحيوانات والطيور صديقة للهنود، وحصل الهنود على معظم مكرها ومهارتها وقوّتها. ومنذ تلك الليلة التي ينيرها القمر إلى جانب البحيرة، عندما تلقى الشاب صاحب العصا السحرية الهدايا الغريبة، بدأ الهنود يزينون ثيابهم الحربية بفراء الحيوانات والطيور وريشها.

وفي بلاد أقصى الشمال، لا تزال تُرقص رقصة الكلب بدافع الشعور بالامتنان للهدايا التي قدموها له، ولكي لا ينسى الهنود الوعد الذي أعطي لهم منذ عهد بعيد.

العصفور الذي بحث عن المطر

في قديم الزمان، عاش يعيش في قرية بالقرب من البحر الكثير من الهنود، ومن بينهم محارب شيخ لطيف مُنح قوة عظيمة منذ ولادته، لهذا كان يستطيع أن يقوم بأعمال مدهشة كثيرة. ولم يكن هناك شيء لا يستطيع أن يفهمه، لأنه يعرف كل شيء. وكانت زوجته قد ماتت منذ فترة بعيدة، وبقيت له ابنة واحدة. وكانت جميلة ولطيفة للغاية ومثالية لا تبدي أي اهتمام بالأشياء التافهة، وتعيش حياة هادئة جداً، فأحبها الناس جميعاً، وصارت موضع ترحابهم أينما ذهبت، وكان أبوها المسنّ فخوراً بها، ويردد بزهو: «لقد ورثت عني معظم حكمتي، وستتزوّج ذات يوم رجلاً عظيماً». لكن الفتاة لم تكن تفكر بالزواج أو بالرجال، لأنها ترى أن عقولهم صغيرة، وتفضّل أن تعيش وحيدة على أن تستمع دائماً إلى تبجّحهم وثرثرتهم الحمقاء.

وسرعان ما طبقت شهرة الفتاة الآفاق وانتشرت في جميع القرى الممتدة على ساحل البحر، وتقدم شبان كثيرون يطلبون

يدها، لكن أباها كان يقول: «لا يوجد لديّ ما أقوله. هي ستختار. يجب أن تكون سعيدة. لأن الأطفال اليوم يدخلون السرور إلى أنفسهم، لا إلى نفوس آبائهم»، وكانت تقول: «لن أتـزوّج إلا شخصاً يمكنه أن يسليني ويثير اهتمامي ويبقى في رفقتي، ولا يعجبني الأشخاص الأغبياء». وفي أحد الأيام، جاء طائر الغوّاص ليراها. وكان وسيماً جداً، رغم طوله ونحوله، وكانت رقبته أطول وهزيلة أكثر من المعتاد، لكنّه كان يرتدي ثياباً أنيقة وكان صيّاد سمك ماهر. جاء لأنه يعتقد أنّه وسيم جداً، وأنه سيفوز بالفتاة بسبب ذلك. بيد أن الفتاة لم تحبّ طائر الغوّاص، لأنه لم يقل ولا كلمة واحدة. وعندما كانت تتكلّم، كان يكتفي بالتحديق فيها، ثم انفجر في ضحكة مجلجلة حمقاء، فقالت له الفتاة: «إن عقلك صغير مثل الآخرين»، وانسحبت من جلسته مشمئزة.

ثمّ جاء الثعلب محاولاً أن يكسب قلب الفتاة، وراح يقطف براعم نبات الكبر طوال اليوم، ويلتف حول ذيله بشكل دائري مرات كثيرة، في محاولة منه لتسلية الفتاة المتجهمة. لكنّه لم ينجح في ذلك، ومثل طائر الغوّاص غادر يائساً. وجاء آخرون كثيرون، لكنّهم لقوا المصير نفسه، وأخيراً قرّرت الفتاة أن لا تقابل

المزيد منهم، وأن تعيش وحيدة مع أبيها. واعترى شباب القرية جميعهم غضب شديد لأن الفتاة تتحدث عنهم باحتقار، وبدأوا يتحدثون فيما بينهم عن غرورها وزهوها بنفسها وقال أحدهم: «إنها تسمينا أصحاب العقول الصغيرة»، وقال آخر: «وتقول إننا حمقى»، وقال ثالث: «يجب أن تدفع ثمن هذه الإهانات». وهكذا أقسموا على أنهم سيحطّمون غرورها، وسيجعلونها حزينة بسبب رأيها بهم وقرارها بأن تظل عزباء طوال حياتها. وكانت الزوبعة من كبار الشخصيات في القرية، وكان بمقدرتها أن تكون مخفية، ويتهمها الناس بأنها ارتكبت أعمالاً شريرة في أحيان كثيرة. لذلك توجه إليها الشبان وطلبوا مساعدتها في تحطيم كبرياء الفتاة المتغطرسة. وبينما يتحدثون إليها، رأوا الفتاة آتية من بعيد، وفي الحال، أسرعت الزوبعة نحوها وأوقعتها في الطين وألقت بقبعتها من رأسها وجرفتها إلى البحر. نظر إليها الشبان في محنتها، وأخذوا يقهقهون، وشعرت الفتاة بخجل شديد، وعادت إلى البيت وأخبرت أباها بما حدث، وأرته ثيابها الملوثة وشعرها المتناثر المتساقط حول وجهها، فغضب أبوها غضباً شديداً، وقال: «يجب أن تدفع الزوبعة ثمن ما فعلته. يجب أن تُطرد على الفور».

ثمّ ذهب أبوها إلى زعيم القبيلة واشتكى له من الزوبعة، فأصدر الزعيم أمراً يقضي بأن تغادر الزوبعة القرية على الفور، إلا أنه لم يكن قد فكّر جيداً بعواقب هذا القرار، وجاء تصرّفه سريعاً وبلا تفكير، لأنه كان يخاف أن يخالف الرجل الحكيم. وهكذا استعدّت الزوبعة لمغادرة المكان، وكان المطر من أعزّ أصدقائها. وكان المطر قد ولد بلا عينين، لذلك فهو أعمى لا يرى إلا السواد، وكان يتعين على الزوبعة دائماً أن تقوده حيثما يذهب. لذلك، قال المطر: «إذا غادرت القرية فإني سأغادرها أيضاً لأنني لا أستطيع أن أعيش هنا من دونك». فانطلقا كلاهما، وقادت الزوبعة المطر الهرم الذي سار إلى جانبها. ولا يعرف أحد إلى أين رحلا لأنهما لم يخبرا أحداً عن المكان الذي سيذهبان إليه، ومضى على غيابهما عدة أشهر قبل أن يشعر الناس بغيابهما، وأحس الجميع بغيابهما في جميع أرجاء الأرض، لأنه لم تهب الريح، ولم يهطل المطر.

وأخيراً دعا زعيم القبيلة أعضاء المجلس للاجتماع، وقرروا إلغاء أمرهم بنفي الزوبعة، وإرسال رسل يبحثون عنهما وإخبارهما بما حدث وإعادتهما. وهكذا أُرسل الثعلب أولاً ليبحث عنهما. وجاب الثعلب أرجاء الأرض لأسابيع عديدة،

وكان يجري بقدر ما يستطيع يبحث عنهما في الدروب الكثيرة، وعلى ضفاف البحيرات والمستنقعات، وفوق الجبال العالية المكسوة بالأشجار، ولم يترك كهفاً أو شقاً إلا وبحث فيه، لكنّه لم يفلح، ولم تعد هناك ورقة شجر أو نصل عشب يتحرّك، وساد الجفاف جميع البلاد، وذبل العشب وأصبح بني اللون، وجفّت الجداول والينابيع. وأخيراً، بعد أن أخفق في بحثه، عاد إلى البلد واعترف خجلاً بإخفاقه في مهمته. ثمّ دعا الأعضاء الدبّ لمواصلة عمله في البحث، فانطلق الدبّ وراح يمشي بتثاقل على الأرض، يتشمم الهواء، ويقلب جذوع الأشجار والصخور الضخمة بكتفيه القويتين، وجازف ودخل الكهوف العميقة، وأجرى تحقيقات كثيرة، وسأل نبتة الغبيراء: «أين الزوبعة؟»، غير أنها قالت: «لا أعرف. لم أرها منذ شهور عديدة»، ثم سأل أشجار الحور الأحمر والصنوبر وأشجار الحور الرجراج، التي كانت أول من ترى الزوبعة عادة، لكن أحداً منها لم يكن يعرف شيئاً عن مكانها. وهكذا عاد الدبّ وقال: «لم أعثر على أثر لأي واحد منهما».

غضب زعيم القبيلة غضباً شديداً بسبب فشل الثعلب والدبّ في مهمتهما، إلا الرجل الحكيم قال: «إن الحيوانات عديمة الفائدة

في مهمة كهذه، فلنجرب الطيور التي تنجح غالباً حيثما تفشل الحيوانات الأخرى». وافق زعيم القبيلة لأن الأرض أصبحت في حالة من البؤس الشديد، وتوقفت قوارب صيد عديدة في البحر قريباً من الشاطئ ولم تعد قادرة على التحرّك لأن الزوبعة كانت بعيدة، وجفّت جميع الآبار والجداول بسبب غياب المطر، وذبل العشب وذوت الأزهار وتعفنت. وهكذا استدعوا الطيور لمساعدتهم. وراح الكركي العظيم يفتّش في المياه الضحلة وبين القصب، دافعاً رقبته الطويلة في الأماكن العميقة، وراح الغراب يبحث بين التلال، وطار طائر الرفراف يبحث بعيداً في البحر، لكنهم عادوا جميعهم وقالوا: «لقد فشلنا نحن أيضاً».

لم يُعثر على التائهين في أي مكان على الأرض أو في البحر، ثمّ وافق العصفور الصغير على أن يقوم هو بالبحث عنهما، وقبل أن ينطلق، اقتلع من صدره ريشة صغيرة كالوبر، وربطها في عود صغير لا يزيد حجمه عن قشّة صغيرة، وحمل العود في منقاره وطار لأيام عديدة صوب الأرض الجنوبية، وكان حريصاً على أن يمسك بالعود طوال الوقت بمنقاره. وفي أحد الأيام، وبعد أن قطع مسافة طويلة، رأى الريشة تتحرّك برقة شديدة، فعرف أن الزوبعة لابد من أن تكون في مكان ليس

ببعيد، وطار بالاتجاه الذي تحركت فيه الريشة، وسرعان ما رأى تحته عشباً أخضر ناعماً، وأزهاراً جميلة من مختلف الألوان، وأوراق الأشجار الخضراء، وجداول كثيرة من المياه الجارية التي تصدر خريراً. وقال لنفسه: «لقد وجدتهما أخيراً»، وراح يتتبع جدولاً صغيراً على مسافة غير بعيدة حتى انتهى إلى كهف في التلال. وأمام الكهف، وجد الكثير من الأزهار المتفتحة، والعشب الأخضر الناعم، والأعشاب الطويلة التي تحني رؤوسها بلطف، وعرف أن الزوبعة والمطر اللذين يبحث عنهما يمكثان في الداخل، ودخل إلى الكهف بهدوء شديد. كانت هناك نار مشتعلة وراء الباب مباشرة، وكان المطر والزوبعة يرقدان بجانبها نائمين. حاول العصفور أن يوقظهما بمنقاره وصيحاته، لكنّهما كانا يغطان في النوم، ثمّ أخذ قطعة من الفحم من النار ووضعها على ظهر المطر، لكنها بقبقت وأزّت ثم انطفأت. ثم وضع قطعة أخرى، وحدث الشيء نفسه. ثمّ أخذ قطعة فحم ثالثة فاستيقظ عندها المطر الذي دُهش كثيراً لسماع صوت غريب في الكهف، لكنّه لم يستطع أن يراه لأنه أعمى، فأيقظ الزوبعة لتحميه.

ثمّ حدثهما العصفور عن المشكلة الهائلة التي تهيمن على

البلاد الشمالية، والمشقّة والحزن العظيمين اللذين جلبهما غيابهما إلى الناس، وكيف أن الحزن عمّ الناس الذين افتقدوهما، لذلك قرر أعضاء المجلس أن يعودا، فقالت الزوبعة: «سنعود غداً إن كانت هناك حاجة ماسة لنا، ويمكنك أن تعود وتخبر قومك بأننا سنأتي. سنكون هناك بعد يوم من وصولك». وهكذا شعر العصفور بفخر شديد، وعاد طائراً إلى قومه. وعندما وصل بعد أيام قليلة، توّجه إلى قومه أولاً لينبئهم بالخبر الجيد، وتجمّع قوم العصفور كلّهم وأقاموا احتفالات كبيرة، وراحوا يزقزقون ويرقصون لأن المطر سيعود غداً، ثمّ ذهب العصفور إلى زعيم القبيلة وقال له: «أيها الزعيم، لقد عثرت على مكان المطر والزوبعة وسيعودان غداً»، وحكى له قصّة رحلته إلى الجنوب والعثور عليهما، فقال الزعيم: «بسبب نجاحك، لن يصطادك أحد أو يقتلك ليأكلك».

وفي صباح اليوم التالي عاد المطر والزوبعة اللذان غابا طويلاً عن الأرض، ووصلت الزوبعة أولاً، سبقتها غيمة كبيرة من الغبار لتنبئ بمجيئها، وارتطمت أمواج البحر عالياً فوق الصخور، وزعقت الأشجار ومالت رؤوسها، وأخذ الجميع يرقصون فرحين بعودتها. وعندما مرت الزوبعة، تبعها المطر مباشرة لأنه

أعمى، وبقى المطر أياماً عديدة مع الناس، وتفتحت الأزهار، وعاد العشب واخضّر لونه ثانية، ولم تعد الآبار والجداول جافة. ومنذ ذلك الحين لم تعد الزوبعة والمطر يغيبان طويلاً عن ساحل المحيط الأطلسي، وحتى يومنا هذا يعرف أهل العصفور متى سيأتي المطر، وللدلالة على قدومه، فإنهم يتجمّعون ويزقزقون ويثبون فرحين ويحدثون هرجاً ومرجاً، تماماً كما فعلوا عندما عثر عليهما سلفهم بواسطة الريشة الناعمة منذ زمن سحيق، لكن الهنود كانوا أوفياء وصادقين بما وعد به زعيمهم، فلم يعودوا يصطادون العصافير للتسلية، ولا يقتلونها لأكلها أو للحصول على ريشها، لأنهم يتذكّرون أنه من بين الطيور جميعها، ذهب العصفور الهرم للبحث عن المطر ووجده.

الفتى في أرض الظلال

عاش طفلان يتيمان، فتى وفتاة، وحدهما في مكان قريب من الجبال، وكان أبواهما قد ماتا منذ زمن بعيد، وبقي الطفلان من دون أن يرعاهما أحد من الأقارب على وجه الأرض. وكان الفتى يخرج إلى الصيد طوال اليوم ليأتي بالطعام، بينما تقوم الفتاة بأعمال البيت من ترتيب وطهي. وكان أحدهما يحبّ الأخر حباً عميقاً، وعندما كبرا قالا: «لن يترك أحدنا الآخر، وسنمكث هنا معاً باستمرار». وفي إحدى السنوات، اشتد البرد في مطلع الربيع، وكست الثلوج السهول، وانتقل الجليد ببطء من الأنهار، وظلت الرياح الباردة تهب بشدة، وخيّمت السحب والأبخرة الرمادية فوق الأرض برمتها، وندر الطعام لأن جميع الحيوانات اختبأت في عرائنها الشتوية الدافئة، وكان الإوز والبط البرّي لا يزال يقبع في أقصى الجنوب. وفي هذه الفترة القاسية من الطقس السيئ، مرضت الفتاة الصغيرة وماتت، وكان أخوها يبذل كل ما بوسعه ليقدم لها الغذاء، وجمع شتى أنواع الجذور الطبّية التي

اعتقد أنها ستنقذها وتعيدها إلى الحياة، إلا أن جهوده تلك باءت بالفشل. وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلها، غادرت أخته ذات مساء عند الغسق إلى بلاد الغرب، وتركته وحيداً على الأرض.

تحطم قلب الفتى حزناً على موت أخته. وفي أواخر الربيع، عندما ساد الدفء، وعاد الغذاء ليصبح وفيراً، قال: «لابد من أنها موجودة في مكان ما في الغرب لأنهم يقولون إن قومنا لا يموتون حقاً. سأذهب وسأبحث عنها، فلعلي أجدها وأعيدها». وفي صباح أحد الأيام، انطلق في رحلته الغربية للبحث عنها. ورحل أياماً عديدة صوب الغرب باتجاه المياه العظيمة، يصطاد الحيوانات ليأكلها في طريقه، وينام في الليل تحت النجوم. والتقى عدداً من الغرباء، لكنّه لم يخبرهم عن هدف رحلته، ووصل أخيراً إلى شاطئ المياه العظيمة، وجلس ينظر إلى الغروب متسائلاً ماذا سيفعل بعد ذلك. وفي المساء جاء شيخ، وسأله: «ماذا تفعل هنا؟». فأجاب الفتى: «أبحث عن أختي التي مرضت منذ فترة من الزمن وماتت، فأصبحت وحيداً من دونها، وأريد أن أجدها وأعيدها معي». فقال الرجل: «لقد مرت التي تبحث عنها من هذا الطريق منذ فترة

من الزمن، وإذا أردت أن تجدها فعليك القيام برحلة خطيرة».
فأجاب الفتى أنه سيكون سعيداً لمواجهة أي خطر لكي يعثر على أخته، فقال الشيخ: «سأساعدك. لقد ذهبت أختك إلى أرض الظلال البعيدة في بلد الصمت الذي يقبع بعيداً في جزيرة بليست. ولكي تصل إلى الجزيرة، يجب أن تبحر بعيداً نحو الغرب، لكنني أحذّرك بأنّها رحلة محفوفة بالمخاطر، لأن عبورها صعب للغاية وستلقي العواصف بمركبك، لكنّك ستكافأ على الصعاب التي ستواجهها، لأنه لا يوجد أحد في تلك الأرض جائع أو متعب، ولا يوجد هناك موت ولا حزن، ولا توجد هناك دموع، ويظل الجميع شباباً».

ثمّ قدم الشيخ للفتى غليوناً كبيراً وقليلاً من التبغ، وقال له: «ستساعدك هذه في رحلتك»، وأخذه إلى مكان فيه زورق صغير على الشاطئ. كان الزورق رائعاً، أجمل قارب رآه الفتى في حياته، فقد نحت من قطعة حجر واحدة بيضاء، وراح يتلألأ في الغسق الأحمر مثل جوهرة مصقولة، وقال له الشيخ: «سيصمد هذا الزورق أمام جميع العواصف، لكن احرص على أن تديره بعناية، وعندما تعود، احرص على أن تبقيه في الخليج الصغير حيث وجدته».

وبعد فترة وجيزة، انطلق الفتى في رحلته. كان القمر بدراً والليلة باردة مليئة بالنجوم. وأبحر إلى الغرب في بحر عاصف متلاطم الأمـواج، بيد أنه لم يواجه أيّ خطر لأن زورقه أبحر بسهولة فوق الماء، ثم رأى حوله في ضوء القمر قوارب عديدة أخرى تبحر في الاتجاه نفسه، جميعها بيضاء ومتلألئة مثل قاربه، وبدا أنه ليس هناك من يوجّهها، فمع أنّه أنعم النظر فيها، لم يتبين وجود أحد فيها، وتساءل إن كانت الزوارق تبحر وحدها ولا يوجد فيها أحد يوجهها، لأنه عندما نادى لم يأته أي رد منها. وكان بين الحين والآخر يرى زورقاً ينقلب في البحر فتغمره الأمواج ولا يعود يُرى ثانية، وغالباً ما كان يخيّل للفتى أنه يسمع صرخة حزينة. أبحر أياماً عديدة نحو الغرب، وكانت هناك طوال الوقت زوارق أخرى غير بعيدة عن زورقه، وكان بعضها يختفي عن نظره تحت أمواج الماء، لكنّه لم ير فيها أي كائن.

وأخيراً، وبعد رحلة طويلة، هدأت أمواج البحر وأصبح الهواء رقيقاً دافئاً، واختفى أثر العاصفة، وهدأت الأمواج، وأضحت السماء صافية كالبلور، ورأى أنه أصبح قريباً من جزيرة بليست التي حدثّه عنها الشيخ، لأنه بدأ يرى سهلاً منبسطاً ارتفع فوق المحيط، تكسوه الأعشاب والأشجار الخضراء، وشاطئاً أبيض

كالثلج. وسرعان ما وصل إلى الشاطئ، وسحب زورقه. وعندما التفت رأى هيكلاً عظمياً مستلقياً فوق الرمل، فتوقّف وألقى نظرة عليه، وعندما بدأ ينظر إليه، انتصب الهيكل العظمي في جلسته، وقال بدهشة كبيرة: «ليس من المفترض أن تكون هنا. لماذا أتيت؟». فقال الفتى: «أبحث عن أختي التي مرضت في مطلع الربيع وماتت، وأنا ذاهب إلى أرض الظلال في بلد الصمت لأبحث عنها»، فقال الهيكل العظمي: «يجب أن تذهب بعيداً داخل اليابسة، والطريق وعرة ويصعب عليك أن تعثر عليها». وطلب الفتى أن يرشده فقال الهيكل العظمي: «دعني أدخّن وسأساعدك»، فأعطاه الفتى الغليون والتبغ الذي أعطاه إياهما الشيخ، وضحك عندما رأى الغليون بين أسنان رفيقه الغريب. دخّن الهيكل العظمي قليلاً، وعندما صعد الدخان من غليونه، تحوّل إلى سرب من الطيور البيضاء الصغيرة التي راحت تطير مثل الحمام. نظر الفتى متعجباً، وقال الهيكل العظمي: «هذه الطيور سترشدك إلى الطريق. هيا اتبعها»، ثمّ أعاد له الغليون وعاد وتمدد على الرمل، ولم يستطع الفتى أن يوقظه من سباته.

وتبع الفتى الطيور البيضاء الصغيرة كما طُلب منه، ومضى يسير في أرض الجمال العظيم حيث تتفتح الأزهار، وحيث يغرد

عدد لا يحصى من الطيور، ولم يصادف أحداً في الطريق. كان المكان مهجوراً إلا من الطيور التي تغرد والأزهار المتفتحة. ومرّ عبر بلد الصمت، ووصل إلى أرض غامضة لا يقيم فيها أحد، ولكن مع أنه لم ير أحداً، فقد تناهت إليه أصوات عديدة لم يعرف مصدرها، بدت أنها تحيط به من جميع الجهات. وتوقّفت الطيور أخيراً عند مدخل حديقة كبيرة، وراحت تحوم حول رأسه، ولم تكن تطير بعيداً عنه، ثم حطت فوق شجرة قريبة، سوى طير واحد جثم فوق كتف الفتى، وعرف الفتى أنه وصل أخيراً إلى أرض الظلال.

وعندما دخل الحديقة، سمع عدة أصوات منخفضة، لكنّه لم ير أحداً، ولم ير إلا ظلالاً من الناس ترقد فوق العشب، ولم يتمكن من رؤية ماذا ينبعث من الظلال. دُهش كثيراً لهذا المشهد الغريب وغير المعتاد، لأن ضياء الشمس لا يحدث أي ظل في ذلك الوقت من السنة في بلده، وراح ينصت ثانية للأصوات، وعرف أن الظلال تتكلّم. أخذ يطوف متعجّباً كثيراً من هذا المكان الغريب بجماله غير الدنيوي الآسر، وسمع أخيراً صوتاً تعرّف فيه صوت أخته. كان صوتاً ناعماً رقيقاً وعذباً، لم يتغير عما كان يعرفه عندما كانا معاً على الأرض. توّجه إلى الظلّ

الذي انبعث منه الصوت، وارتمى على العشب بجانبه، وقال: «إني أبحث عنك منذ مدة طويلة يا أختي. لقد جئت لكي آخذك إلى البيت. دعيني أراك كما كنت أراك عندما كنا نقيم معاً»، لكن أخته قالت: «لقد تصرفت بحكمة لأنك أبقيتني في ذاكرتك، ولرغبتك في أن تبحث عني. لكننا هنا لا نستطيع أن نظهر لأناس الأرض إلا كظلال، ولا أستطيع أن أعود معك، لأن الأوان قد فات كثيراً، فقد أكلت من طعام هذه الأرض، ولو كنت قد أتيت قبل أن أتناول طعامها، لعلك استطعت أن تأخذني معك. من يعرف؟ لكن قلبي وصوتي لم يتغيرا، وما زلت أتذكّر الذين أحبهم، وبحبّ لا يتبدل ما زلت أراقب بيتي القديم؛ ومع أنّني لا أستطيع الذهاب معك، يمكنك أن تأتي إليّ ذات يوم، لكن يجب أن تنهي أولاً عملك على الأرض. عد إلى وطنك في بلاد الأرض، وستصبح زعيماً عظيماً في قومك. احكم الناس بالعدل وبالحكمة، ووزع الطعام الذي لديك مجاناً على الفقراء الهنود الذين لا يملكون بقدر ما تملك. وعندما ينتهي عملك على الأرض، ستأتي عندي إلى أرض الظلال القابعة وراء بلد الصمت، وسنصبح معاً ثانية، ولن يغادرنا شبابنا وقوتنا وجمالنا إلى الأبد».

دُهش الفتى كثيرا في حزن عميق، وقال: «دعيني أمكث معك الآن»، لكن أخته قالت: «هذا غير ممكن»، ثم قالت: «سأعطيك ظلاً يجب أن تحتفظ به بمثابة الروح الحارسة، وما دام معك، لا يمكنه أن يصيبك بأذى، لأنه لن يكون حاضراً إلا في الضوء، وحيثما يوجد ضوء لا يمكن أن يكون هناك شرّ، لكنه عندما يختفي يجب أن تكون حذراً وأن تحرص على ألا ترتكب أعمال الشرّ، لأنه سيكون هناك ظلام، وقد يقودك الظلام إلى الخطأ».

وهكذا أخذ الفتى الظلّ، وبدأ رحلة العودة إلى بلده. وأرشدته الطيور الصغيرة البيضاء التي كانت تنتظره على الأشجار إلى الشاطئ. كان زورقه لا يزال هناك، لكن الهيكل العظمي لم يعد له أثر على الرمل، وكانت جزيرة بليست صامتة باستثناء صوت تغريد الطيور، وخرير الجداول الصغيرة. ركب الفتى زورقه وأبحر شرقاً، وما إن ابتعد عن الشاطئ، حتى تركته الطيور الصغيرة البيضاء وتلاشت في الهواء. كان البحر هادئاً ولم تهب أي عاصفة، كما حدث في رحلته السابقة. وسرعان ما وصل إلى الشاطئ على الجانب الآخر، وترك زورقه في الخليج الصغير كما أخبره الشيخ، وبعد بضعة أيام عاد إلى بيته، لا يزال حاملاً الظلّ معه من بلد الصمت.

وعمل بجد لسنوات عديدة، لكنّه لم يرتكب شرّاً، وفي النهاية، أصبح زعيماً عظيماً وأحسن كثيراً لشعبه، وحكم بالحكمة والعدل، وعامل شعبه برقة ولين كما طلبت منه أخته. وفي أحد الأيام، عندما أصبح شيخاً وانتهى عمله، اختفى، وعرف قومه أنه ذهب ليلحق بأخته في أرض الظلال في بلد الصمت البعيدة في مكان ما في الغرب، لكنه ترك الظلّ الذي أعطته إياه أخته. وعندما يكون هناك ضوء يبقى مع الهنود ظلّهم فلا يصيبهم أذى، لأنه حيثما يكون الضوء، لا يمكن أن يكون هناك شرّ.

وفي أواخر الخريف، يبقى ظلا الأخ والأخت الهنديين في بلد الصمت وحيدين كما في حياتهما السابقة، ويتذكران أصدقاءهما الأحياء وأماكن شبابهما، ويتمنّيان مرة أخرى أن يخرجا إلى الصيد، لأنهما يعرفان أنّ قمر الصيد مضيء، وحين تلوح في ذاكرتهما حياتهما السابقة، يُسمح لروحيهما بأن تعودا إلى الأرض لقضاء فصل قصير بعيداً من أرض الظلال، وحينئذ تسكن الرياح، وتعود الأيام ساكنة هادئة، ويظهر دخان نار مخيمهم مثل ضباب رقيق في الهواء. ويطلق الناس على هذا الفصل اسم الصيف الهندي، لكنّه ليس إلا ظلّ الصيف الذهبي الذي ولّى. ويذكر الهنود دائماً أنه في أرض الظلال، بعيداً في بلد الصمت في الغرب، لا يوجد هناك أموات.



ISBN 978-9948-01-353-2





المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة